# علاقة فقهاء الإسكندرية والعلماء النازلين بها بالسلطة خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي

د. محمود كامل محمد السيد عبد الكافي(•)

## الملخص

تعالج هذه الدراسة علاقة فقهاء الإسكندرية والعلماء النازلين بها بالسلطة، ودورهم في الحياة العامة خلال القرن السادس الهجري، وهي الفترة التي تشمل أواخر العصر الفاطمي الثاني وبداية العصر الأيوبي، ويهدف هذا البحث الى إبراز دور هؤلاء الفقهاء تجاه السلطة الذين استطاعوا الى حد ما تحقيق نوع من التوازن في علاقتهم من أجل الحفاظ على هيبة الدولة وتسيير شؤونها، خاصة فيما يتعلق بالجوانب السياسية والادارية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والدينية، وقد شكل الفقهاء طبقة اجتماعية لها مكانتها وثقلها وتأثيرها في اوساط الخاصة والعامة، لما يحتله هؤلاء من مكانة بين المسلمين لاسيما أهل السنة منهم بالاسكندرية، ولهذا حرص الأمراء والخلفاء على ارضائهم ونيل تأييدهم من دون المساس بأمن البلاد ونظامها السياسي، كما تستهدف الدراسة أيضًا إبراز سياسة التسامح المذهبي وأثرها في رعاية العلماء في القرن السادس الهجري، وكيف كانت مكانة العلماء لدى السلطة وشفاعتهم، كما تشمل الدراسة الصدام بين العلماء والسلطة خلال فترة الدراسة، وتكشف الدراسة أيضًا موقف الفقهاء من قضايا الدولة، ودور العلماء من الوظائف العامة في ظل السلطة، واخيرًا تكشف الدراسة الأثر الثقافي والديني بين العلماء والساسة من خلال بناء الجوامع والمدارس العلمية في المجتمع السكندري.

---

(•)مدرس التاريخ الإسلامي – كلية التربية – جامعة مطروح.

**Abstract**

This study deals with the relationship of the jurists of Alexandria and the scholars who descended there with the authority, and their role in public life during the sixth century AH, which is the period that includes the end of the second Fatimid era and the beginning of the Ayyubid era. Balance in their relationship in order to preserve the prestige of the state and the conduct of its affairs, especially with regard to the political, administrative, social, economic, cultural and religious aspects. The jurists formed a social class that had its status, weight, and influence in private and public circles, due to the position that these occupies among Muslims, especially the Sunnis among them in Alexandria, and for this reason the princes and caliphs were keen to please them and obtain their support without prejudice to the security of the country and its political system, and the study also aims to highlight the policy of tolerance sectarianism and its impact on the care of scholars in the sixth century AH, and how was the position of the scholars with the authority and their intercession? The study also includes the clash between the scholars and the authority during the study period. The study also reveals the position of jurists on state issues, and the role of scholars in public positions under the authority. Finally, the study reveals the cultural and religious impact between scholars and politicians through building mosques and scientific schools in Alexandrian society.

**مقدمة:**

كان لموقع مدينة الإسكندرية الجغرافي أثر كبير في توثيق العلاقات بينها وبين بلدان المشرق و المغرب في العصر الإسلامي، ولم تكن التجارة الداعي الوحيد للوافدين إليها، بل كان إلى جانبها أيضًا الحج وطلب العلم، فعاش في الإسكندرية كثير ممن نزحوا إليها من كل فج، من اليمن، والشام، والعراق، والحجاز، ومن أقصى المشرق الإسلامي. لكن ربما كان أهل المغرب والأندلس أكثر هؤلاء الوافدين إليها، حتى غدت الإسكندرية حقًّا بوابة المغرب.وكان كثير من الوافدين إليها يؤثرون البقاء فيها واتخاذها وطنًا ودار إقامة؛ لينالوا شرف المقام في هذا الثغر العظيم؛وليستزيدوا من العلوم أو لينشروا علومهم. وقد زادت صلة الإسكندرية بالمغرب بصفة خاصة قوة ووثاقة منذ أتى الفاطميون بجيوشهم من المغرب للسيطرة على مصر، واتخذوها مقرًا لخلافتهم، فصار المغرب-منذ انتقال الفاطميين إلى مصر-ولاية من ولايات مصر الفاطمية؛ ونتيجة لهذا كثرت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى مصر بوجه عام وإلى الإسكندرية بوجه خاص.

ازدادت إذن هجرة العلماء وطلاب العلم والرحالة إلى مصر بصفة عامة والإسكندرية بصفة خاصة خلال القرن السادس الهجري،وقدم كثيرون من علماء المشرق والمغرب والأندلس إلى مصر، ممن نجد تراجم لهم في كتاب "معجم السفر"[١] للحافظ السلفي، وكتاب"الصلة"[٢] لابن بشكوال، وكتاب بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس[٣] للضبي، وكتاب التكملة لكتاب

---

[١] الحافظ السلفي (ت٥٧٦هـ) معجم السفر، تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م

[٢] ابن بشكوال (ت٥٧٨هـ) الصلة، ط١، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م

[٣] الضبي(ت٥٩٩هـ) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ط١، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩م.

الصلة[١] لابن الأبار، وكتاب" الذيل والتكملة"[٢] لابن عبد الملك، وكتاب"سير أعلام النبلاء"[٣] للذهبي، وكتاب"نفح الطيب"[٤] للمقري في الجزء الثاني.ومن هذه التراجم الغزيرة، نستطيع رسم ملامح عامة لتلك الهجرة، وللنشاط العلمي في الإسكندرية بصفة خاصة.

ولعل من أهم أسباب تلك الهجرة عوامل داخلية، وتتمثل في الاستقرار السياسي، والرخاء الاقتصادي، والتسامح المذهبي في مصر في معظم فترات القرن السادس الهجري، في ظل عصر الوزراء العظام(في العصر الفاطمي الثاني)، وسياسة الأفضل الداخلية.وعوامل أخرى خارجية،منها الغزو الفرنجي لبلاد المهاجرين الذين قصدوا مصر والإسكندرية فرارًا من ويلاته.من صقلية التي احتلها النورمان عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م،ومن الأندلس التي عانت من غارات الممالك الإسبانية المسيحية مثل قشتالة ونبرّه في النصف الثاني من القرن ٥هـ/١١م، ومن الشام التي قامت بها الإمارات الصليبية في نهاية القرن ٥هـ/١١م.[٥] وأدى

---

[١] ابن الأبار (ت٦٥٨هـ) التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

[٢] ابن عبد الملك (ت٧٠٣هـ) الذيل والتكملة، تحقيق إحسان عباس، محمد بن شريفة، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٢م.

[٣] الذهبي(ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م. ابن عبد الملك (ت٧٠٣هـ) الذيل والتكملة، تحقيق إحسان عباس، محمد بن شريفة، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٢م.

[٤] المقري(ت١٠٤١هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

[٥] ابن الأثير(ت٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ، مراجعة محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م ج٩، ص٢٠٨، إدريس عماد الدين(ت٨٧٢هـ)، زهرة المعاني، ط١، تحقيق مصطفى غالب، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٩١م، ص٢٦٠، عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٠م، ص٦٢، توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية=

وفود أولئك العلماء إلى مصر، وبثهم علومهم ومعارفهم،وإسهامهم الواضح في الإنتاج العلمي إلى ازدهار الحركة العلمية في بعض المدن الكبرى المصرية.

وعلى الرغم من أن المذهب الرسمي للدولة في العصر الفاطمي كان المذهب الشيعي وأن الدولة بذلت جهودًا كبيرة لنشر هذا المذهب بين المصريين، ظلت مدينة الإسكندرية مدينة سنية،وكان المذهب الذائع والمعمول به بين السكندريين، مذهب مالك،منذ أن انتشر عند أهل المغرب و الأندلس[١].

ولعل أهم أسباب اختيار الباحث هذه الفترة أنها فترة نضجت فيها شخصية الإسكندرية الإسلامية، وازدهرت فيها الحركة العلمية والفكرية، ثم هي بعد ذلك تمثل التقاء بين عصرين اختلفا في كثير من المعتقدات والمفاهيم، هما:العصر الفاطمي والعصرالأيوبي.وهذا يتيح لنا فرصة رصد طبيعة علاقة الفقهاء والعلماء بالسلطة في مدينة الإسكندرية خلال القرن ٦هـ/ ١٢م.

=للكتاب، تونس، ١٩٩٧م، ج٢، ص٢٣٠، ألبرت فون آخن، تاريخ الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس، ترجمة، محمد حمدان، دار الإعصار العلمي، دمشق، ٢٠١٦م، ص٩٦.

(١) منذ القرن الثاني الهجري كان المذهب المالكي الذي انتشر في مصر قد مد جذورة في أرض الإسكندرية، وتعود صلة السكندريين بالمذهب المالكي إلى عصر الإمام مالك، حيث ذاع صيته في الآفاق، فرحل عدد من أهل الإسكندرية للتتلمذ على يديه، وسماع الموطأ منه، ومنهم من جاء من بلاد المغرب والأندلس فسمع من الإمام مالك ولكن أثناء العودة استقر بالإسكندرية، حيث شكلت هذه المشاركة النشطة في الحياة العلمية لعلماء السكندريين عاملاً مهماً في نشر المذهب المالكي.(القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق عدد من الباحثين، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، د.ت، ص٥٤-٦١، جمال الدين الشيال، العالم المجاهد أبو بكر الطرطوشي، دار الكاتب العربي، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٣٨، سعد زغلول عبد الحميد، الأثر المغربي والأندلسي في مجتمع الإسكندرية، محاضرة ضمن كتاب "مجتمع الإسكندرية عبر العصور" مجموعة من المؤلفين، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٥م، ص٢٢٠-٢٢٢ ).

ولم يكن الطريق أمام الباحث ممهدًا؛ حيث أن معظم الباحثين الذين تكلموا عن تلك الحقبة شغلوا بالخوض في تاريخها السياسي والحضاري وأيضًا بالخلافات المذهبية،والحركة الأدبية والفكرية، دون التعرض إلى العلاقات بين الفقهاء والسلطة.ومع هذا ينبغي ألا نغفل جهود بعض الباحثين الذين ألقوا الضوء على جوانب من طبيعة هذه الحقبة[١].منهم مصطفى علي دويدار في بحث بعنوان" رحلات صلاح الدين العلمية إلى مدينة الإسكندرية" [٢] الذي تحدث فيه عن حب

[١] هناك بعض الدراسات التي تبحث في تاريخ مدينة الإسكندرية السياسي والحضاري، ودراسات أخرى تبحث في الحياة العلمية والأدبية والفكرية في مصر بصفة عامة، ومن أبرز هذه الدراسات :

- جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، الإسكندرية، **١٩٦٦**م.
- أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، ط**١**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، **٢٠٠١**م.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، **١٩٨٢**م
- أحمد النجار، الإنتاج الأدبي في مدينة الإسكندرية في العصرين الفاطمي والأيوبي، المجلس الأعلي لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، **١٩٦٢**م.
- محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ط**١**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، **٢٠١٢**م.
- آمال رمضان عبد الحميد، الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي، أطروحة مقدمة للماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، **٢٠٠١**م.
- خالد بن عبد الرحمن القاضي، الحياة العلمية في مصر الفاطمية، ط**١**، الدار العلمية للموسوعات، بيروت، **٢٠٠٨**م.
- محمد سعيد شامس علي الكندي، الصلات العلمية بين الأندلس ومدينة الإسكندرية منذ منتصف القرن الخامس حتى الربع الأخير من القرن السادس الهجريين (**٤٦٦-٥٧٦**هـ/**١٠٧٤-١١٨٠**م)، رسالة دكتوراه بإشراف إبراهيم عبد المنعم سلامة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، **٢٠٢٣**م.

[٢] مصطفى علي دويدار، رحلة صلاح الدين العلمية إلى مدينة الإسكندرية، مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، د.ت.

صلاح الدين للعلم والعلماء في الاسكندرية وتعرض لجميع رحلاته إلى مدينة الإسكندرية دون التعمق في العلاقات بين الفقهاء والسلطة وهناك دراسة أخرى للباحث لؤي إبراهيم بواعنة بعنوان" دور علماء السنة ومساهماتهم في الدولة الفاطمية بمصر"[١] حيث تناولت هذه الدراسة علماء السنة في جميع مدن مصر الذين كانوا لهم إسهامات و ادوار مؤثرة في الفترة من منتصف القرن الخامس حتى منتصف القرن السادس الهجري، دون ذكر الأيوبيين كما تحدث عن مصر بشكل عام .

واشتمل البحث على ثلاثة معايير أولها: ذكر أي علاقة بين الفقهاء والعلماء النازلين بمدينة الإسكندرية دون سواها من مدن مصر الأخرى والمعيار الثاني: التركيز على الفترة الزمنية أي خلال موضوع الدراسة القرن ٦هـ/ ١٢م ، أما المعيار الثالث ذكر فقهاء وعلماء الإسكندرية الذين كانت لهم بالفعل دور حقيقي وعلاقة مباشرة مع السلطة دون ذكر علماء مدينة الإسكندية الذين لم تكن لهم اي صلة بالسلطة.

وفيما يتعلق بالمنهج الذي اتبعناه، فقد استخدمنا منهج البحث التاريخي بمختلف أدواته من وصف،وتحليل،واستقراء، واستنباط، ومقارنة؛ والرجوع إلى العديد من المصادر المتخصصة التي اختصت بتاريخ و أحداث مدينة الإسكندرية في العصرين الفاطمي والأيوبي كما اعتمدنا على العديد من المصادر الخاصة بتاريخ المغرب الإسلامي وبلاد المشرق لخصوصية هذا الموضوع الذي يجمع بين المشرق والمغرب الإسلامي على السواء.

---

[١] لؤي إبراهيم بواعنة، دور علماء السنة ومساهماتهم في الدولة الفاطمية، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، العدد ٣، المجلد ١٣، ٢٠١٩م.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، تضمنت المقدمة موضوع الدراسة، وأهميته ومنهج الدراسة والدراسات السابقة.وخصصت التمهيد لتعريف السلطة لغة واصطلاحاً، ولمعرفة فقهاء الإسكندرية وعلاقتهم بالسلطة في نهاية القرن ٥هـ/١١م .وأفردت المبحث الأول لإلقاء الضوء على سياسة التسامح المذهبي وأثرها في رعاية العلماء في القرن السادس الهجري ،وخصصت المبحث الثاني في الحديث عن مكانة العلماء لدى السلطة وشفاعتهم (العلاقة الودية). أما المبحث الثالث فتحدثت عن الصدام الحقيقي بين السلطة والفقهاء وأشرت في المبحث الرابع إلى مواقف الفقهاء من قضايا الدولة والسلطة ثم تحدثت في المبحث الخامس عن وظائف العلماء والفقهاء في ظل السلطة وعرضت في المبحث السادس الأثر الثقافي والديني للعلاقة بين العلماء والساسة، وختمت الدراسة بخاتمة تشتمل على أهم النتائج، ثم أوردت خريطة شملت مدينة الإسكندرية في العصرين الفاطمي والأيوبي موضحاً بها بعض أماكن فقهاء الإسكندرية.

**دراسة تمهيدية :**

**أ- تعريف السلطة لغة واصطلاحاً**

**أولاً: مفهوم السلطة لغة**

في معاجم اللغة العربية ورد مفهوم السلطة بمرادفاته ك" سَلَطَ، يَسَلُّط، سُلطان"، حيث وردت في لسان العرب السلطة بمعنى القهر، ويقال رجل سليط، أي فصيح حديد اللسان وقوي البرهان، ويضيف ابن منظور أن السلطان سمّي

سلطاناً، لأنه حجة الله في أرضه[١]، ويؤكد على ذلك أيضًا الفيروز آبادي بأن السلطة هي ضرورة إمتلاك السلطان أو القائد على القدرة والحجة[٢].

**ثانياً: مفهوم السلطة اصطلاحاً**

عبّر الفقهاء المسلمون عن لفظ السلطة بمرادف آخر وهو الولاية" بمعنى الوالي أو الإمام أو الخليفة أو السلطان أو الوزير أو القاضي ، ...الخ، وبناءً على ذلك، قسموا الولاية إلى نوعين: " الولاية العامة"، وهي بحق التصرف العام على شؤون الناس عامة كرئيس الدولة، والولاية الخاصة" وهي الولاية للأفراد بصفتهم الشخصية كولاية الأب على الأبناء[٣] ولأن مفهوم السلطة السياسية أمر متعلق ب" الولاية العامة" لا " الخاصة"، فقد ارتبط مفهوم الولاية العامة بالعديد من المرادفات.

**ب- فقهاء الإسكندرية وعلاقاتهم بالسلطة في نهاية القرن ٥هـ/١١م:**

كانت الدولة الفاطمية في أواخر القرن ٥هـ/١١م تعاني من الاضطراب وعدم الاستقرار بسبب الصراع الدامي بين الوزراء الذين استبدوا بالأمور، وسلبوا الخليفة الفاطمي كل سلطة، حتى غدا الخلفاء في قصورهم العوبة في أيدي أولئك الوزراء الذين خلعوا على أنفسهم ألقاب الملك والسلطنة، مثل أمير الجيوش، وكافل المسلمين وحامي الدين، والملك الصالح، والملك العادل وغير ذلك من الألقاب.

---

[١] ابن منظور(ت٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر بيروت، د.ت، م٧، ص٣٢٠-٣٢١.

[٢] الفيروزآبادي(ت٨١٧هـ) القاموس المحيط، ط٨، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٦٧١.

[٣] أحمد محمد الزرقا، شرح القواعد الفقهية، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٨٩م، ص٣١١-٣١٢.

وكان الوزير بدر الجمالي[١](٤٦٦هـ- ١٠٧٣م / ٤٨٧هـ -١٠٩٤م) قد أعاد إلى مصر ما افتقدته من حياة الأمن والهدوء والاستقرار في خلافة المستنصر بالله(٤٢٧هـ-١٠٣٦م/٤٨٧هـ-١٠٩٤م)،وأنقذ خلافة الفاطميين التي كانت تغالب الانهيار، وأعاد هيبة رسوم الدولة ونظمها. لكنه أظهر مذهبيتها مرة أخرى؛ ففي عام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م قاد حملة على مدينة الإسكندرية، وعزل قاضيها ابن المحيرق الذي كان قد ولاه أمر الإسكندرية بعد أن قضى على المفسدين فيها والخارجين على السلطة من طائفة الملحيين[٢] (إحدى طوائف الفاطميين) واللواتيين ويبدو أن القاضي ابن المحيرق لم يقنع بما أسند إليه بدر، وطمع في أكثر منه، فأعلن الثورة في الإسكندرية، فقصدها بدر الجمالي بجيوشه،وقبض على ابن المحيرق وجماعة من فقهاء المدينة وأعيانها، وعاقبهم بغرامة ثقيلة[٣].

---

[١] بدر الجمالي هو مملوك أرمني من أصل مسيحي، من مماليك جمال الدولة أبي الحسن علي بن صاحب طرابلس، ومنه لقب بالجمالي أمير الجيوش المصرية. وكان يتصف بشدة العزم وقوة البطش، وظل يتنقل في الخدمة، ويتدرج في الرتب حتى ولي دمشق وسائر الشام دفعتين كانت الأولى سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٢م وظل واليًا إلى ان خرج منها هاربًا سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م والثانية كانت في سنة ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥م وفيها ثارت فتنة، وثار عليه أهل البلدة، فخرج منها، واستقر بعد خروجه بثغر عكا إلى أن استدعاه الخليفة المستنصر بالله لإنقاذ مصر مما آلت إليه. (ابن الصيرفي(ت٥٤٢هـ) الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٢٤م، ص٥٥-٥٦، ابن القلانسي(حمزة بن أسد(ت٥٥٥هـ) ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص٩٢).

[٢] الملحي بكسر الميم وسكون اللام نسبة إلى الملح وبيعه كذلك، وهم طائفة من عسكر مصر خرجت عن طاعة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في مصر، واطلق عليهم اسم الملحية ويقال لكل واحد منهم ملح، وهم كثيرون.(ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ج٣، ص٢٥٤).

[٣] المقريزي(ت٨٤٥هـ) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٩٦م، ج٢، ص٣١٤، ابن تغري بردي(ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥م، ج٥، ص١٠١، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص١٨٩.

وفي عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م أمر بدر الجمالي المؤذنين بإعادة الأذان الشيعي(حي على خير العمل)،والتكبير على الجنائز خمس تكبيرات،كما نقش سب الصحابة على الجدران،وقتل عددًا من العلماء[١] ويروي السلفي في معجمه بعض أنباء هذا الانتقام الرهيب الذي يدل على موقف أهل الإسكندرية وإيمانهم الراسخ بالمذهب السني، من ذلك أن فقيه الإسكندرية حمود الخريمي الجذامي-الذي كان مسموع الكلمة في المدينة-وقف عند ضرب عنقه مع غيره من الفقهاء، والتفت إلى أبي حفص الشواء، الذي كان هو الآخر يستقبل الموت، وقال له:"فزعت ؟! لا تفزع؛ فليس بيننا وبين الجنة إلا ضرب الرقبة"، وكان لحمود الخريمي ابنٌ قد أُخِذَ معه ليُقتل[٢]،فقال:"يا هؤلاء إن كنتم أمرتم بقتله فقدموه قبلي حتى أجده في ميزاني"[٣].

ولم يكتف بدر الجمالي بما أساله من دماء، فتعقب بقية فقهاء المدينة بالإهانة ملزمًا إياهم باعتناق المذهب الشيعي والعمل بشعائره، وإلا جعلهم موضع سخرية، وعندما رفض عبد الرحمن بن يوسف بن خير الصقلي(ت٥٢٦هـ)-أحد فقهاء الثغر-أن يؤذن بأذان الشيعة، وأن ينادي بـ(حي على خير العمل)،أهين، وعُلق جرس في رقبته، وأُركب حمارًا، وجُرِّس.وهو يضحك، ويسلّم على الناس، ويقول : هذا وقت التهنئة فهنئوني[٤].

---

[١] ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٥، ص١٢٠، خالد بن عبد الرحمن القاضي، الحياة العلمية في مصر الفاطمية، ص٩٧.

[٢] وهو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن حمود كان من أهل الفقه والأدب والصلاح، وكان أبوه يحيى من أصحاب الفضل، ظل عبد الله بالإسكندرية إلى أن قتل والده، فقد رحل إلى الحجاز ومنها إلى اليمن، وتوفي في سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م.(معجم السفر، (ترجمة رقم ٤٢٧)ص١٤٠).

[٣] السلفي، معجم السفر، (ترجمة رقم ٤٢٥-٤٢٦)ص١٣٩-١٤٠.

[٤] السلفي، نفسه، (ترجمة رقم ٥٥٤)ص١٧٤-١٧٥.

ودب الرعب في قلوب أهل العلم في الإسكندرية بفعل سياسة التعصب المذهبي التي انتهجها الوزير بدر الجمالي، ويصف بعض هذا الفقيه المالكي المشهور ابن العربي[١]، فيقول:" وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر، فألفينا بها جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، والسلطان عليهم جَرِيٌّ، وهم من الخمول في سرب خفيّ، ومن هجران الخلق بحيث لا يرشد إليهم جريّ "[٢]

وفي سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م توفي الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وأصبحت السلطة كلها في أيدي الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي[٣](٤٨٧-٥١٥هـ / ١٠٩٤-١١٢١م)، الذي بادر بمبايعة ابن الخليفة المستنصر بالله الأصغر أحمد ولقبه المستعلي بالله، وأبعد الابن الأكبر نزار الذي فر إلى الإسكندرية، واتفق مع

---

[١] هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي، ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨هـ، وصحب أباه في رحلته إلي المشرق سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، وكان حينذاك في السابعة عشرة من عمره، وتتلمذ إبان تلك المرحلة على كبار علماء مصر والحجاز والشام والعراق، ففي بغداد حضر دروس أبي حامد الغزالي، وفي بيت المقدس لازم أبا بكر الطرطوشي قبل انتقاله إلى الإسكندرية واستقراره بها وتتلمذ عليه، وعاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م إلى مسقط رأسه إشبيلية ومعه الكثير من العلوم، وتوفي بمدينة فاس عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م. (ابن بشكوال، الصلة، ج٣، ص٨٥٦-٨٥٧، ابن خلكان(ت٦٨١هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج٤، ص٢٩٦، ابن فرحون(ت٧٩٩هـ) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي ابو النور، دار التراث، القاهرة، د.ت، ج٢، ، ص٢٥٢-٢٥٥).

[٢] ابن العربي(ت٥٤٣هـ) قانون التأويل، ط١، تحقيق محمد السليماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ١٩٨٦م، ص٤٣٢.

[٣] الأفضل شاهنشاه أبو القاسم أحمد بن بدر الجمالي، مولده بعكا، خلف أباه في إمارة الجيوش المصرية زمن المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، أرمني الأصل وطد دعائم الملك للآمر بأحكام الله العبيدي ودبر شؤون دولته، فنقم عليه الآمر فدس له من قتله على مقربة من داره في القاهرة في عام ٥١٥هـ/١١٢١م، وكانت ولايته ثمانيًا وعشرين سنة. (الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٥٧-٥٩، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص٢٨٠).

ابن مصال[١] أحد قواد الدولة الذي جمع له أهل الثغر وأعيانه، فبايعوه بالخلافة. وتعرضت الإسكندرية إلى أزمة خطيرة، بعد أن تحصن بها نزار وآزره نصر الدولة أفتكين[٢]والي الإسكندرية، وجلال الدولة ابن عمار[٣] قاضيها، ووقف أهلها إلى

---

[١] هو الوزير نجم الدين سليم بن محمد بن مصال، من أهل لك، بضم اللام، بلدة عند برقة من أعمالها، كان هو وأبوه يتعاطيان البيزرة والبيطرة، وبذلك تقدما، وكان شهماً، مقداماً، وصار من أكابر الدولة الفاطمية، استوزره الظافر بأمر الله في أول ولايته، وكان عالماً بأصول الدين، شجاعاً متواضعاً، قتل في عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م.(ابن منقذ(ت٥٨٤هـ)الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٩م، ص ٣٠، ابن الطوير(ت ٦١٧ هـ) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، ط١، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار فرانتس شتاينر شتوتغارت، ١٩٩٢م، ص٥٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤١٦-٤١٧، الصفدي (ت٧٦٤هـ) الوافي بالوفيات، ط١، تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ١٥، ص٢١٠-٢١١).

[٢] وهو الأمير نصر الدولة- أو ناصر الدولة -أفتكين التركي أحد غلمان أمير الجيوش بدر الجمالي، ترقى في خدمته إلى أن ولاه الإسكندرية وقتله الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٤٨٨هـ.(ابن ميسر(ت٦٧٧هـ) المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، د.ت، ص ٦١-٦٣، المقريزي (ت٨٤٥هـ) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٩٩٥م، ج٢، ص٣٩٣-٣٩٤).

[٣] هو القاضي جلال الدولة -أوجلال الملك -أبو الحسن علي بن أحمد بن عمار، الذي تولى طرابلس بعد وفاة عمه القاضي أبي طالب ابن عمار سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م، فضبط البلد أحسن ضبط، ولما توفي المستنصر بالله الفاطمي عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وتنازع الأمر نزار والمستعلي كان جلال الدولة في صف نزار، فلما استتب الأمر للمستعلي قتل القاضي جلال الدولة بن عمار ومن أعانه.(ابن الأثير (ت٦٣٠هـ):الكامل في التاريخ، مراجعة محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م، ج٨، ص٣٩٢-٤٩٨، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤-١٥، أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ط١، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٢م، ص١٥٠-١٥٢).

جانبه ولقبوه بالمصطفى لدين الله.[١]

وخرج الوزير الأفضل سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م بجيش كبير من القاهرة لإخماد ثورة نزار في الإسكندرية وحاصر المدينة مدة ولكن الثوار صمدوا، وعاد الأفضل مهزومًا، ومع ذلك لم ييأس وعاود الكرة، فحاصر الإسكندرية وهدم أسوارها وحطم أبوابها وأبراجها بالمنجنيق، وقطع عن أهلها الميرة وتمكن من القبض على نزار وأفتكين وقتلهما [٢] كما تتبع جميع من كان مع نزار أو أعانه، فقبض على كثير من وجوه الإسكندرية،ومنهم قاضي الثغر ابن عمار.[٣]

وممن قتل أيضًا الشريف الكلثمي، وكان هذا الشريف كثيرًا ما يشتم الأفضل في الطرقات، فلما دخل الأفضل الإسكندرية حبسه مع ابن عمار، وقتلهما في وقت واحد[٤]وأصاب الإسكندرية من هذا النزاع ومن هذا الحصار والقتال كثير من التخريب، وانتقم الأفضل من أهلها انتقامًا شديدًا لتأييدهم لنزار

---

[١] ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص٥٩-٦١، المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج٢، ص٣٩٣-٣٩٤، جمال الدين الشيال، العالم المجاهد أبو بكر الطرطوشي، ص٤٢، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان (٤٧٠-٥٧٦هـ) مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت، ص١١٨.

[٢] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤، عبد المنعم ماجد (محقق) السجلات المستنصرية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤م، ص١٤٧-١٥٠.

[٣] أرسل ابن عمار إلى الوزير الأفضل من سجنه ورقة يقول فيها:

هل أنت منقذُ شِلوِى من يدي زمن أضحى يقُدُ أديمي قدَّ مُنتهس

دعوتك الدعوة الأولى وبي رمق وهذه دعـوتي والدهر مفترسي

فوصلت الورقة إلى الأفضل بعد مقتل ابن عمار، فقال : والله لو وقفت عليها قبل ذلك ما قتلته. (أبو الحسن علي بن أبي السرور(من علماء القرن السابع الهجري) بلغة الظرفاء في ذكرى تاريخ الخلفاء، ط١، مطبعة النجاح، مصر، ١٩٠٩م، ص٧٦-٧٧، المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص١٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٤).

[٤] ابن أبي السرور، المصدر السابق، ص٧٦-٧٧.

ومبايعتهم له [١] حتى إن ابن حديد[٢] قاضي الإسكندرية الجديد ذهب على رأس وفد إلى مدينة رشيد، يدعو الفقيه المالكي أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي[٣] للإقامة في الإسكندرية عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م لخلو البلاد من أهل العلم إثر فتنة نزار[٤] وفي هذا الصدد يذكر أبو الطاهر بن عوف[٥] بأن نزوله بالإسكندرية كان في

---

[١] جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، ص٧٠.

[٢] هو القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد بن حمدون الكناني، قاضي الإسكندرية، ولد عام (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) وتوفي بثغر رشيد عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م وكانت له مدة في القضاء بالإسكندرية، واستولى على أمورها، وصار قاضيها وناظرها، ولم يبق لأحد معه فيها كلام .وكانت للشعراء فيه مدائح كثيرة، وممن مدحه ظافر الحداد وأمية بن أبي الصلت، وقيل إن عبدالمجيد بن حديد هو ابن أخي القاضي أبي الحسن زيد بن الحسن.(ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢٠، المقريزي، المقفى الكبرى، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م، ج٣، ص ٣٩٢).

[٣] أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الفهري المعروف بابن أبي رندقة، وُلد بطرطوشة بالأندلس، وكان فقيهًا مالكيًّا، تعلم الفقه على القاضي أبي الوليد الباجي، رحل لثغر الإسكندرية عام ٤٧٦هـ/١٠٧٤م وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ثم رحل الى مكة ومنها الى بغداد ثم الى بلاد الشام ومنها عاد مرة أخرى للإسكندرية وبقي بها حتى وفاته عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م .(القاضي عياض(ت٥٤٤هـ) الغنية، ط١، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م، ص٦٢-٦٣، ابن بشكوال، الصلة، ج٣، ص٨٣٨-٨٣٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٦٢، ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص ٢٤٤ – ٢٤٨، المقريزي، المقفى، ج ٦، ص ٤٤٢ – ٤٤٨، المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٨٥، جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية، ص٥٧-٧٠).

[٤] الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ج١، ص١٧٦-١٧٧، جمال الدين الشيال، العالم المجاهد أبو بكر الطرطوشي، ص٤٣-٤٤.

[٥] هو إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف أبو الطاهر القرشي الزهري الإسكندري، شيخ العلماء والمتورعين بثغر الإسكندرية ولد سنة ٤٨٥هـ، تفقه على أبي بكر الطرطوشي، وكان إمام عصره في الفقه على مذهب مالك، توفي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، ودفن بالديماس بثغر الإسكندرية.(ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٢٩٤، الذهبي=

أعقاب قتل الأمير بها العديد من علمائها، "فوجد البلد عاطلاً عن العلم، فأقام بها وبث علمًا جمًّا".[١]

وهكذا مضت سيرة بدر الجمالي ومن بعده الأفضل مع علماء الإسكندرية وفقهائها،حتى إذا وفد الطرطوشي إلى الثغر لم يلق من الأفضل إلا معاملة سيئة أثارت سخطه. [٢]

### ١- سياسة التسامح المذهبي وأثرها في رعاية العلماء في القرن ٦هـ/١٢م :

شهد القرن السادس الهجري ازدهار علوم أهل السنة وانتشارها؛ بفعل عوامل عدة، منها الهجرة لمصر التي زادت منذ أواخر القرن الخامس الهجري في عهد الوزير الأفضل الذي ضرب على أيدي الاسماعيلية المتعصبين، فخفَّت وطأة المذهب الإسماعيلي على البلاد في عهده[٣] وترك للناس حرية المعتقد والمذاهب، فتوافد علماء أهل السنة والطلاب إلى مصر بالآلاف، وطال عهد الوزير الأفضل الجمالي، فازدهرت علوم أهل السنة، وعلى رأسها الفقه خاصة مذهبي مالك والشافعي، وظهرالعديد من العلماء والفقهاء الذين امتازوا بالنشاط العلمي وتصنيف الكثير من المصنفات على عكس الفترات السابقة .

ويبدو أن مطلع القرن السادس الهجري كان بداية لعصر جديد للحياة العلمية والدينية في مصر في كنف الوزير الأفضل؛ إذ أحدث تغيرات في سياسة

---

=، سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص٢٧٢، ابن المعلم القرشي(ت٧٢٥هـ) نجم المهتدي ورجم المعتدي، تحقيق عبد الباسط عبد الصمد أبو كامل، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٢١، ص٤٠٤).

[١] ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج٢، ص٢٤٧.

[٢] ابن العماد (١٠٨٩هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط١، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٩م، ج٦، ص١٠٣.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٢٠٨، إدريس عماد الدين، زهرة المعاني، ص٢٦٠.

الدولة الداخلية، فاتسم عهده بالعدل والتسامح الديني، حتى عده المؤرخ المعاصر أبويعلى القلانسي(ت٥٥٥هـ)[١] والرحالة أبو حامد الغرناطي-الذي زار مصر عام ٥١٢هـ/١١١٨م-[٢] واحدًا من أهل السنة.وكثر في مصر الغرباء في عهده، ثم تأثرت أحوالهم بموته[٣]، فلا عجب في أن قدم إلى مصر في عهد الأفضل أقطاب الحياة العلمية خلال فترة الدراسة.

يتضح مما سبق أن الفاطميين برعوا في استخدام سلاح العلم والأدب والثقافة خلال صراعهم مع الخلافة العباسية؛ إذ إن مذهبهم الشيعي الذي يخالف مذهب جمهور أهل السنة كان في حاجة إلى الدعوة وكسب المؤيدين في أنحاء العالم الإسلامي، وكان عليهم إلى جانب الغزو السياسي والحربي القيام بغزو فكري لاجتذاب العلماء والأدباء والمفكرين.وكان لوزرائهم دور مهم في هذا؛ فهم الرعاة الحقيقيون للحركة العلمية في القرن السادس الهجري، بل إنهم لعبوا دورًا رئيسًا في تغيير دفة تلك الحركة وبروز بعض ميادينها.بل ظهر بعض الوزراء العلماء في العصر الفاطمي، وشهدت قصورهم مجالس علمية، يؤمها العلماء والأدباء، وتعقد فيها المناظرات في أصول الدين والفقه، وكانت البداية لهؤلاء الوزراء المشاركين في تلك المناظرات يعقوب بن كلس[٤](٣٦٨هـ-٣٨٠هـ) وزير الخليفة العزيز بالله

---

[١] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٠٤.

[٢] أبو حامد الغرناطي (ت٥٦٥هـ) المعرب عن بعض عجائب المغرب، ط١، تحقيق محمد صناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ص٧٩.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٢٠٨، محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م، ص١٣٧.

[٤] يعقوب بن كلس هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس وزير الخليفة الفاطمي العزيز بالله نزار بن المعز. كان يعقوب يهوديًا يزعم انه من ولد هارون بن عمران، ولد ببغداد ووصل إلى مصر سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م، وأصبح من جملة كتاب كافور، وأسلم سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م، وولي الوزارة للخليفة العزيز بالله سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، وكان أول من وزر للدولة الفاطمية في مصر، وتوفي في سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م .(ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص٢٧، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٨، ص٨٧-٩١).

الذي يعد من كبار الفقهاء الإسماعليين والمصنفين،وكان يجتمع في داره كل يوم ثلاثاء بالفقهاء والمتكلمين وأهل الجدل للتناظر في أمور الدين، وخصص الأرزاق الدائمة لهم[١] وفي شهر رمضان تمد موائده –وعليها ألوان الأطعمة– للفقهاء ووجوه الناس وأهل التعفف، وكان إذا فرغ الفقهاء من الأكل معه يطاف عليه وعليهم بالطيب[٢] ولم يشهد العصر الفاطمي وزيرًا مثله على شاكلته سوى الوزير الصالح طلائع بن رزيك[٣](٥٤٩-٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦٠م)،الذي كان محبًّا للعلم والعلماء والأدباء،وكان له مجلس بالليل يحضرونه، يناظر فيه فقهاء السنة في الإمامة والقدر،ويحاول الانتصار لمذهبه الإمامي. بل صنف بعض مصنفات في المذهب تتضمن العديد من المسائل التي كان يناظر فيها [٤] وقصده فقهاء وشعراء

---

[١] المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٦.

[٢] المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص١٧.

[٣] هو أبو الغارات الصالح طلائع بن رزيك الأرمني الأصل، ولد في عام ٤٩٥هـ/١١٠١م، وكان والده أسد رزيك قد قدم إلى مصر مع أمير الجيوش بدر الجمالي في عام ٤٦٦هـ/١٠٧٣م، وعمل طلائع واليًا على منية بني خصيب من أعمال الصعيد، ثم دخل القاهرة وتولى الوزارة في عهد الخليفة الفائز(٥٤٩-٥٥٥هـ/ ١١٥٤-١١٦٠م) وبعد موت الفائز استمر وزيرًا للعاضد.واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة و كان يهتم بالعلماء وعرف عنه أيضًا أنه كان كثير الصدقات، كما اشتهر بكتابة الشعر وكان يعقد مجلسًا يجمع فيه الأمراء المقربين له في مصر ومن خارجها، ومنهم المؤرخ عمارة اليمني.وقتل طلائع بن رزيك في عام ٥٥٦هـ/١١٦٠م.(عمارة اليمني(ت٥٦٩هـ)، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تصحيح هرتويغ درنبرغ، مطبعة مرسو، شالون، ١٨٩٧م، ص٤٥، العماد الأصبهاني(ت٥٩٧هـ) خريدة القصر وجريدة أهل العصر، تحقيق أحمد امين وشوقي ضيف، المجلس الأعلى، القاهرة، ١٩٥١م، ج١، ص١٧٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٥٢٦-٥٢٨).

[٤] عمارة اليمني، النكت العصرية، ص٤٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٥٢٦، محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص١٣٤.

الشام [١] وبعد وفاته تراجعت نهضة الشعر والأدب عن أوجها الذي بلغته في عهده،ووصف ذلك العماد الأصبهاني فقال: " قرب الفضلاء،واتخذ لنفسه الجلساء، ورحل إليه ذوو الرجاء،وأفاض على الداني والقاصي الرجاء والعطاء".[٢]

ولقد سلَّم الخلفاء والوزراء خلال هذه الفترة بقوة المذهب السني، واعترفوا بالقوى السنية التي فرضت وجودها في المجتمع، فعزف رجال الدولة عن سياسة العنف والشدة ضد فقهاء السنة التي كانت في العصر الفاطمي الأول[٣] وكان لعلماء السنة الذين هاجروا إلى مصر دور كبير في إعلاء شأن أهل السنة، وإحياء مذاهبهم من جهة، وإثراء العلوم الدينية عندهم على نحوٍ عام، وتمثل ذلك بشكل واضح في اسهامات عدد من العلماء الذين استوطنوا الإسكندرية على نحوٍ خاص، وكان لمكانتهم وعلمهم شأن كبير في الدولة، مما استدعى قيام وزراء الدولة الفاطمية آنذاك بإنشاء مدارس لهم.منهم رضوان بن ولخشي[٤]عام (٥٣٢هـ/١١٣٧م) في عهد الخليفة الحافظ، وكان سنيًّا [٥] بنى في ثغر الإسكندرية مدرسة سنية، وقرب إليه فقيه المدينة أبا الطاهر بن عوف، يستشيره ويستعين

[١] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٩٦.

[٢] خريدة القصر وجريدة أهل العصر، ج١، ص١٧٣-١٧٤.

[٣] ابن الزيات(ت ٨٠٤هـ)، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص١١٥.

[٤] هو رضوان بن ولخشي، ولي قوص وأخميم أول ماولي، وكان سنياً، حسن الاعتقاد، شجاعاً، شديد البأس. كان أيام الوزير بهرام النصراني واليًا على الغربية فاستنجد به المصريون لدفع النصارى. ولقب بالوزير الملك الأفضل، قتل عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م نتيجة مؤامرة من قبل الخليفة الحافظ. (ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص١٣٠، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٦٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٨١، أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص٢٠١).

[٥] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٦٧.

برأيه[١] ،كما بنى الوزير الفاطمي العادل بن السلار الكردي[٢] عام (٥٤٦هـ /١١٥١م) للإمام السلفي (ت٥٧٦هـ)[٣] المدرسة التي عرفت بالسلفية-وقيل العادلية- وقد تولى الوزارة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، وكان سنيًا شافعيًا، وتولى على الإسكندرية، فسمع بالسلفي، فأكرمه، وعمَّر له مدرسة فوض إليه التدريس فيها[٤]. ويذكر ابن خلكان أنها كانت المدرسة الوحيدة لتدريس المذهب الشافعي

---

[١] المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٦.

[٢] هو سيف الدين أبو الحسن علي بن السُّلار الكردي الملقب بالملك العادل وزير الخليفة الفاطمي الظافر بأمر الله، وقيل يكنى بأبي منصور علي بن إسحاق.كردي الأصل.وقد ارتبط تاريخ قدوم ابن السُّلار وعائلته إلى مصر بالحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس. تقلبت به الأحوال في ولايات بالصعيد إلى أن تولى الوزارة، عقب أن ولاه الظافر ولاية الإسكندرية في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، وتوفي مقتولاً عام ٥٤٨ه/١١٥٣م.(ابن منقذ، الاعتبار، ص٣١، ابن الطوير، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، ص٥٧-٥٩، ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٤١٦-٤١٩).

[٣] هو أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سلفة الأصبهاني، نسب إلى جده الملقب بسِلفْة ثم قالوا له سِلفي بكسر السين لئلا يشتبه بالمنسوب للسَلف. وهو أحد حفّاظ الحديث المكثرين، كما كان عالمًا بالنحو، جمع معجمًا لشيوخه.هو "معجم السفر"، ودخل ثغر الإسكندرية عام ٥١١هـ/١١١٧م وهو في السادسة والثلاثين من عمره، واستوطنها حتى توفي فيها سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، وقصده الناس من الأماكن البعيدة، ولم يكن ينافسه أحد في علمه خلال عصره.(ابن الأبار(ت٥٩٤هـ)، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ط١، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م، ص٥٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٠٥: ١٠٧، الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦ م، ج ١٢، ص ٨١ – ٨٧، جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، ص١٣٠-١٣٨).

[٤] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص١٠٥، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص ٤٩١ – ٤٩٢، السبكي(ت٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحي، دار احياء الكتب العربية، دمشق، ١٩٦٩م، ج٦، ص ٣٧، جمال الدين=

في الإسكندرية[١] وهذا يعني أنهم خدموا الدولة وأسهموا في تحقيق نهضة تعليمية واضحة بها، وإن كانت هذه النهضة قد خدمت المذهب السني أكثر من خدمتها للمذهب الإسماعيلي مذهب الدولة الرسمي[٢]، فإن ما قام به وزراء الدولة من أهل السنة وعلماؤها في الإسكندرية لم يلقَ معارضة واضحة من الدولة والقائمين على مذهبها الشيعي، وهذا يدل على ما شهدته تلك الفترة من تسامح ديني؛ إذ لم تكن هناك توجهات مذهبية واضحة إزاء تعلم تلك العلوم السنية .

وعندما أصاب الفقيه الطرطوشي مرض، قام بزيارته القاضي بن حديد، وكان رفيع القدر، عظيم الجاه، وسأله بن حديد عن علته ، فأخبره الطرطوشي بها، فأمر القاضي بإحضار طبيب متخصص يعرفه منذ أن وصل إلى الإسكندرية، فلبى الطبيب طلب القاضي، وأوصى بن حديد الطبيب أن يهتم به وأن يعطيه ما يساعده على الشفاء، فصنع له دواءًا . [٣]

وقد برز هذا التقارب بين العلماء والسلطة نهاية خلافة الفاطميين،عند قدوم أسد الدين شيركوه إلى القاهرة عام **٥٥٩هـ/١١٦٣م**؛ فقد زار برفقة الوزير شاور عددًا من فقهاء السنة في منازلهم[٤]، مثل الكيزاني[٥]، كما اهتم الأيوبيون

=الشيال، أعلام الإسكندرية، ص١٤٠، سيد محمود محمد عبد العال، مدارس الإسكندرية في العصر الفاطمي وأثرها في نشر الثقافة العربية الإسلامية، ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب بعنوان" تاريخ الوطن العربي عبر العصور، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص١١٥.

[١] وفيات الأعيان ج٣، ص٤١٧.

[٢] لؤي إبراهيم بواعنة، دور علماء السنة، ص٥٤.

[٣] الضبي، بغية الملتمس، ج١، ص١٧٨.

[٤] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧٢-٢٧٣.

[٥] هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المصري الواعظ الشافعي، والكيزاني نسبة إلى عمل الكيزان وبيعها، وكان بعض أجداده يصنع ذلك. توفي سنة **٥٦٢هـ/ ١١٦٦م**، وأوضح العماد الأصفهاني إنه كان من العلماء المبرزين إلا أنه ابتدع مقالة ضل بها اعتقاده؛=

بالإسكندرية بوجه خاص دون كثير من مدن القطرين المصري والشامي؛ فقد اشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم والعلماء، وكانت الإسكندرية زاخرة بهم؛ ولهذا فمنذ أن دخل صلاح الدين مصر في صحبة عمه أسد الدين شيركوه،حرص على الالتقاء بعلمائها، وزيارة مراكزها العلمية ورواية الأحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية والمعاني الأدبية [١] فكان يجمع حوله العلماء، ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم، وربما شاركهم في جدالهم ومناقشة مسائلهم الفقهية [٢] حتى وصفه ابن الأثير بأنه كان لديه علم ومعرفة وسمع الحديث وأسمعه [٣] ويضيف العماد الأصفهاني صاحب ديوان الإنشاء للسلطان صلاح الدين بأن مجالسه كانت حافلة بالعلم ومنزهه وأنه كان دائما يناقش القضاة بالأحكام الشرعية. [٤]

وكان صلاح الدين يتميز بشدة رغبته في سماع الحديث وتعلمه، ومتى سمع من شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإنه إن كان ممن يحضر عنده وسمع عليه

=إذ ادَّعى أن أفعال العباد قديمة، وكان لهذه البدعة تأثير في جماعة اعتنقوها بمصر عرفوا بالطائفة الكيزانية.( خريدة القصر وجريدة أهل العصر، ج٢، ١٨-٤٠، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٦٧، ولمزيد حول الفقيه الكيزاني راجع:علي صافي حسين، ابن الكيزاني الشاعر الصوفي المصري حياته وديوانه، دار المعارف، مصر، د.ت، ص٣١: ٤١).

[١] أبو شامة(ت٦٦٥هـ)الروضتيين في أخبار الدولتيين النورية والصلاحية، ط١، تعليق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٢، ص٢٩١، سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، ١٩٩٦م، ص١٣٩.

[٢] العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ط١، المطبعة الخيرية، ١٣٢٢هـ، ص٣٧٣، ابن شداد، سيرة صلاح الدين الأيوبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٥م، ص١١، عفاف سيد محمد صبرة، المدارس في العصر الأيوبي، بحث في كتاب المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١٤٩، مصطفى علي دويدار، رحلة صلاح الدين العلمية إلى مدينة الإسكندرية، ص١٢١٩.

[٣] الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٢٥.

[٤] العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص٣٧٣.

فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يتقرب إلى السلاطين، ويتجنب الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه.[١]

وقد تردد سلاطين الأيوبيين على مدينة الإسكندرية للنظر في أمرها، وكانت هذه الزيارات حافلة أيضًا بزيارة العلماء وسماع الفقه والحديث؛ فقد زارها صلاح الدين في عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، أيام توليه منصب الوزارة في حياة الخليفة العاضد، فرمم أسوارها وحصونها [٢] ثم زارها مرة ثانية عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م، مصطحبًا معه ولديه الأفضل والعزيز عثمان، فصام بها قسمًا من شهر رمضان، وسمع الحديث من الحافظ أبي الطاهر السلفي، وروى أحاديث كثيرة عنه[٣] كما أسمع ولديه الحديث النبوي[٤].

---

[١] ابن شداد، سيرة صلاح الدين الأيوبي، ص١١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٩، مصطفي دويدار، رحلة صلاح الدين العلمية إلى الإسكندرية، ص١٢١٩.

[٢] المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٠٥ .

[٣] أبو شامة، الروضتين ج٢، ص ٢٩٤ -٢٩٥، ابن واصل(ت٦٩٧هـ) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٥٤م، ج٢، ص٥٦، ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص٩، السبكي، طبقات الشافعية، ج٦، ص٣٨، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص٢٣٨، رجب عبد المنصف وآخرون السلطان صلاح الدين لمحات من حياته وصور من مآثره، سلسلة أعلام الإسلام، عدد٥، يونية، ٢٠٠٤م، ص٦٢.

[٤] ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٥٦، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ٢٠١٨م، ج١، ص١٧٣-١٧٤، السيوطي(ت٩١١هـ) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ط١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، حلب، ١٩٦٧م، ج٢، ص١٩، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص٤٢.

كما زار صلاح الدين الإسكندرية مرة ثالثة في عام ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، عقب وفاة الحافظ السلفي ولعل تأثره بوفاته هو الذي جعله يسرع بلقاء أبي الطاهر بن عوف الذي كان يتمتع بمنزلة مرموقة عند السلطان صلاح الدين الذي حفظ له موقفه، عندما حاصر الوزير الفاطمي شاور مدينة الإسكندرية سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م، فامتنع الشيخ هو ومن معه من أنصار صلاح الدين بمنار الإسكندرية فحاصرهم شاور، ثم طلب ابن عوف السماح والعفو من الوزير شاور فعفا عنهم. (١)

ومن المرجح أن زيارة صلاح الدين هذه كان الغرض منها مباشرة ما تم إنجازه من تحصينات لمدينة الإسكندرية(٢) وقد أشار إليها كثير من المؤرخين نقلاً عن العماد الأصفهاني الذي صحب السلطان فيها، فقالوا إن صلاح الدين خيم عند السواري وشاهد الأسوار التي جددها وأمر باستكمال البناء وتحصنه والاهتمام به، ثم انتهز الفرصة وحضر مجلس الفقيه أبي الطاهر بن عوف فحضر عنده وسمع عليه موطأ مالك بن أنس وأسمع أولاده.(٣)

ويذكر العماد الأصفهاني الذي حضر مع السلطان وأولاده دروس ابن عوف إنه وجد كتابًا من القاضي الفاضل(٤) إلى السلطان، يهنئه فيه بهذا السماع، ويتحدث

(١) المقريزي الخطط ج١، ص٤٧٣، المقريزي، السلوك، ج١، ص١٨٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٧٣، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص٢٠٠.

(٢) جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، ص٦٤.

(٣) البنداري(ت٥٨٣هـ) سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩م، ص١٨٨، أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٥٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤١٩، ابن واصل، مفرج الكروب ج٢، ص١١٢، السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج١، ص٤٥٣، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص٢٣٩-٢٤٠، دويدار، رحلة صلاح الدين، ص ١٢٢٥.

(٤) هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرج اللخمي، البيساني الأصل، العسقلاني، المولد، المصري الدار.يرجع نسبه إلى قبيلة لخم العربية، وهناك=

عن رحلته إلى مدينة الإسكندرية، وحرصه على دراسة علوم الحديث، وسماعه من كبار العلماء، وانشغاله بالعلم وتحصيله، ويشير في رسالته إلى أن السلطان صلاح الدين الأيوبي هو ثاني من قصد العلماء وحضر مجالسهم لطلب العلم من ملوك المسلمين، بعد الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي سمع أيضًا موطأ الأمام مالك.[١]

كما اتجهت عناية صلاح الدين إلى الغرباء والذين يفدون على الإسكندرية لطلب العلم أو التجارة، يصف هذا ابن حبير بأن صلاح الدين وفر لطلاب العلم المساكن والمدارس،كما أقام لهم حمامات يستحمون فيها وأنشأ لهم مستشفيات لعلاج المرضى، بل إن اهتمام السلطان بأمر هؤلاء الغرباء بلغ إلى حد جعله يضمن لهم قوتهم وطعام يومهم.[٢]

وبعد موت صلاح الدين **٥٨٩هـ/١١٩٣م**، زار الإسكندرية ابنه العزيز عثمان الذي كان يوليها اهتمامه حيث أنها ثغرة وطنه وسبق أن زارها بصحبة والده

=روايتان بشأن تاريخ ولادته، إحداهما تشير إلى أنه ولد سنة **٥٢٦هـ/١١٣١م**، والأخرى تشير الى سنة **٥٢٩هـ/١١٣٤م**، والأرجح أنه ولد سنة **٥٢٦هـ/١١٣١م**، فابن واصل عند حديثه عن تاريخ مولد ووفاة الفاضل أفاد بأن القاضي الفاضل حسبما بلغه ولد سنة ست وعشرين وخمسمائة، وكان عمره عند وفاته نحو سبعين سنة.(ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج**١**، ص**١٥٨-١٦٢**، ابن واصل، مفرج الكروب، ج **٣**، ص **١١٠**، أبو الفداء(ت**٧٣٢**هـ)، المختصر في أخبار البشر، دارالبحار، بيروت، **١٩٦١**م، ج**٥**، ص**١٢٨**، ابن الوردي (ت**٧٤٩**هـ)، تتمة المختصر في أخبار البشر، ط**١**، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، **١٩٧٠**م، ج**٢**، .ص **١٧٣**).

[١] أبو شامة، الروضتين، ج**٣**، ص**٦٠**، السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج**٢**، ص**١٩**.

[٢] ابن جبير(ت **٦١٤**هـ) رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت، ص**١٥-١٦**، أحمد النجار، الإنتاج الأدبي في مدينة الإسكندرية في العصرين الفاطمي والأيوبي، ص**٥٩**.

كما أسلفنا.[١]

يتضح لنا مما سبق عناية الحكام من الفاطميين والأيوبيين بفقهاء الإسكندرية وعلمائها والنازلين بها، ولا شك أن هذا كان له أثره الواضح على المدى الحضاري الذي بلغته المدينة في القرن ٦هـ/١٢م، كما أن كثرة الوافدين والغرباء في المدينة أشاع في مجتمعها روح التسامح وعدم التعصب المذهبي .

**٢- مكانة العلماء لدى السلطة وشفاعتهم (العلاقة الودية)**

تبوأ علماء مدينة الإسكندرية كما ذكرنا مكانة رفيعة في عصر الخلفاء الفاطميين ووزرائهم؛ إذ بالغوا في إكرامهم ماديًّا ومعنويًّا، وكان للقضاء نفوذ في المدينة خلال تلك الفترة، خاصة أسرة ابن حديد، بدءًا بالفقيه زيد بن الحسن بن حديد، الذي عينه الوزير الأفضل قاضيًا عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م بدلاً من القاضي جلال الدولة بن عمار، واستمر القضاء في أسرته[٢] وبالغ الأفضل في إكرامه وأهل بيته. [٣]

وترجع تلك المكانة السامية التي حظيت بها أسرة بني حديد بالإسكندرية لما كانوا عليه من العدل والإنصاف، وأيضًا لموقفهم من أزمة مبايعة نزار بالإسكندرية؛ لأنهم لم يبايعوا نزارًا، ولم يشاركوا في الأزمة بأي تدخل يسوؤهم[٤] ،فبلغ ذلك الأفضل وكانوا يهادونه سرًّا ويرسلون إليه من قني آبار النيل من تحت الأرض مع قوم يثقون بهم، فلما فتح الأفضل الإسكندرية واستولى عليها، قلد

---

[١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٢٧، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة الإسكندرية، ص٢٤٠.

[٢] ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص٦٣، المقريزي، المقفى الكبير، ج٦، ص٨٥.

[٣] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٥.

[٤] المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص١٥.

القضاء لأبى الحسين زيد بن الحسن بن حديد بدلاً من قاضيها ابن عمار الذي كان ضالعًا في ثورة نزار ومبايعته بالإمامة.[١]

كما ظهرت هذه المكانة والعلاقة الطيبة بين السلطة والعلماء زمن الفقيه المشهور أبي بكر الطرطوشي(ت٥٢٠هـ)؛ فحينما استقر به المقام في الإسكندرية خرج لزيارة الحاضرة القاهرة وهناك ذهب لزيارة الوزير الكبير صاحب السلطان الأعلى الملك الأفضل شاهنشاه، بعد أن سمع عن جبروته وسلطانه، ليس من أجل منحة أو عطية أو مديحه له، بل لينصحه نصيحة العلماء وليعظه الموعظة الحسنة، وليطلب منه الرفق بالرعية وإشاعة العدل بينها، وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم، وقد أثبت الطرطوشي موعظته هذه للأفضل في كتابه سراج الملوك.[٢]

ويصف العماد أن الفقيه الطرطوشي عندما دخل على الأفضل شاهنشاه بسط مئزرًا كان معه تحته وجلس عليه،وكان إلى جانب الأفضل رجل نصراني فوعظ الأفضل حتى بكى[٣].

ويبدو أن الوزير الأفضل عندما سمع من الطرطوشي، ورأى ما يمتاز به من علم وتقوى،طلب منه السكنى بالفسطاط ومغادرة الإسكندرية والانتقال إلى

---

[١] ابن أبي السرور، بلغة الظرفاء، ص٧٧، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص١١٨.

[٢] الطرطوشي(ت ٥٢٠هـ)سراج الملوك، ط١، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، تقديم شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٤م، م١، ص١٧، وانظر مقدمة المحقق، ص٢٣، جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية، ص٧١-٧٣.

[٣] أنشد الطرطوشي الأفضل في هذا اللقاء قائلاً:

يا ذا الذي طاعته قربة وحقه مفترض واجب

إن الذي شرفت من أجله يزعم هذا أنه كاذب .

وأشار إلى النصراني، فأقامه الأفضل من موضعه.(شذرات الذهب، ج٦، ص١٠٣).

جامعها لرياسة فتواه، فامتنع الطرطوشي،وكان مجانبًا للسلطان وحاشيته معرضًا عنهم شديدًا عليهم مع مبالغتهم في إكرامه وبره.[١]

وبلغ من العلاقة الوطيدة بين الفقيه الطرطوشي والوزير الفاطمي المأمون المعروف بابن البطائحي[٢](ت٥١٩هـ) أن أهداه الطرطوشي كتاب سراج الملوك عرفانًا بالجميل أو رغبة في التقرب إليه.وكان قد صنفه للأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش الذي قتل قبل إتمامه[٣] وهو من الكتب الهامة في السياسة والإدارة.[٤]

---

[١] القاضي عياض، الغنية، ص٦٣، ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٢٤٥.

[٢] هو أبو عبد الله محمد بن المختار بن البطائحي، تولي الوزارة بعد مقتل الأفضل سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م، وكان أَبوه من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلف شيئًا، وربي محمد هذا يتيما، فاتصل بإنسان يعرف بالبناء بمصر، ثم صار حمالاً بالسوق، فدخل مع الحمالين إلى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل شابًا خفيفًا، يتمتع بالهمة والنشاط، فأعجبه، فسأل عنه، واستخدمه مع الفراشين، ثم تقدم عنده، وترقت حاله، وكان آخر أمره أنه عمل على قتل الأفضل، وتولى منصبه، واستولى على الدولة وجرد الخليفة الآمر من صلاحياته حتى الخطبة بجامع القاهرة وجامع ابن طولون وجامع الفسطاط، بدل الخليفة وسمح له بالخطبة فقط في الأعياد والمناسبات، وقتل على يد الآمر سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩، ص٢٣٤، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٢٢٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص٧٦-٧٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧٦).

[٣] ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٢٤٦، ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص١١.

[٤] ابن الصيرفي، المصدر السابق، ص١١ وقد خالف ابن خلكان غيره من المؤرّخين بقوله إن الكتاب الذي صنفه الطرطوشي له، وأهداه إياه، هو "سراج الهدى" وليس سراج الملوك، وقد يكون الخلاف في التسمية ليس أكثر، وإن كان الاسم الأول كثر شيوعًا.(ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٦٣، لؤي إبراهيم بواعنة، دور علماء السنة و مساهماتهم في الدولة الفاطمية، ص٥٢ ).

ومن علماء الإسكندرية أيضًا ،ممن كان له موقف عجيب مع الأفضل، أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسي[١] الذي قدم مصر من الأندلس في خلافة الآمر بأحكام الله الفاطمي ووزارة الأفضل.وشرع أبو الصلت أمية يتقرب إلى رجال السلطة متسلحًا بعلمه وأدبه، حتى تمكن من الاتصال بتاج المعالي- وكان من خواص الوزير الأفضل- وعرض عليه خدماته، فاستخدمه، ووصل عنده إلى مكانة مرموقة؛ لحسن معشره، وفصاحة لسانه. كما نجد في ديوانه قصائد كثيرة امتدح فيها الأفضل قبل حبسه.كما يدل ذكره لعدد من مشاهير عهده في قصائده على الصلة الحميمة بينه وبينهم، وعلى أنه قضى فترة غير قصيرة حرًّا طليقًا في مصر قبل حبسه.[٢]

وكثيرًا ما كان وزراء الدولة الفاطمية يحرصون على كسب ود العلماء، بالتقرب منهم وزيارتهم، وتلبية حوائجهم، كما كانت مطالب العلماء وشفاعاتهم

---

[١] هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني (٤٦٠-٥٢٩هـ)، ولد في بلدة دانية شرقي الأندلس، شاعر وأديب وحكيم أندلسي، خرج من بلده وعمره عشرين سنة، وأقام بمصر عشرين سنة يطلب العلم، كان فاضلاً في فنون الآداب، فصنف كتاب سماه (الحديقة ) كما صنف وهو في اعتقال الأفضل بمصر رسالة (العمل بالأسطرلاب)، وكتابًا في المنطق سماه (تقويم الذهن)، ومن كتبه (الأدوية المفردة) (والانتصار في الرد على علي بن رضوان)، أما عن عام وفاته ففي رواية ابن الأبار أنه توفي في عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م، وفي بعض مصادر أخرى أنه في عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م، والصحيح الثاني، فإن أكثر الناس عليه. (ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص١٦٨-١٦٩، ابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٥٠١-٥٠٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٢٤٣-٢٤٧، والمقريزي، المقفى، ج ٢، ص ٢٤٠ ).

[٢] ياقوت الحموي(ت٦٢٦هـ) معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، تحقيق أحمد فريد رفاعي، وزارة المعارف العمومية، ١٩٣٦م، م٧، ص٥٣-٥٥، إنعام عيسى موسى، الصورة الفنية في شعر الحكيم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الأندلسي، أطروحة ماجستير، جامعة ام درمان الإسلامية، ٢٠٠٨م، ص١٧.

مستجابة. وقد بدا واضحًا أن سياسة إكرام العلماء كانت نهجًا تنتهجه الدولة الفاطمية على مستوى الخليفة والوزراء، وبرز ذلك بما نالوه منهم من مكانة رفيعة وتقدير وعطاء، فعندما زار الفقيه أبو بكر الطرطوشي(ت ٥٢٠هـ)،الوزير الفاطمي المأمون ابن البطائحي ٥١٦هـ/١١٢٢م ،بالقاهرة بالغ في إكرامه،وأنزله مجلسه، حتى قيل إنه استقبله بدار الوزارة، وجلس عند رؤيته بين يديه، وأجرى له كل يوم خمسة دنانير من مال الجوالي[١] فلم يقبل غير دينارين كانا باسمه منذ أيام الوزير الأفضل.[٢]

وإضافة إلى ذلك طلب الطرطوشي منه أن يساعده في بناء مسجد في الإسكندرية، فأصدر المأمون أمره إلى حاكم المدينة وقاضيها ابن حديد بتلبية رغبات الإمام الطرطوشي، والموافقة على الموضع الذي يختاره، وأن يبالغ له في إتقان المسجد وسرعة إنجازه، على أن تكون النفقة عليه من مال ديوانه(ديوان المأمون/مال الدولة)[٣] وتبدو سياسة الإغداق هذه سلاحًا استخدموه وبرعوا فيه لكسب مؤيدين لدعوتهم التي تخالف مذهب أهل السنة. [٤]

كما تجسد الاحترام بين وزراء الدولة الفاطمية وعلماء مدينة الإسكندرية جليًّا في حسن استقبال العلماء لهم، وتمثل ذلك واضحًا عند خروج الفقهاء

---

[١] الجوالي جمع جالية ويطلق هذا المصطلح على ما يُؤخذ من أهل الذمة، وقيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة وإن لم يجلوا من أوطانهم.(ابن الطوير، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، الحاشية رقم٢، ص٩٢، النويري(ت٧٣٣هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م، ج٣٢، ص١٧٤، القلقشندي(ت٨٢١هـ)صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٤م، ج٣، ص٤٦٢).

[٢] المقريزي، المقفى، ج ٦، ص٤٤٣.

[٣] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٨٨ – ٩٢، المقربزي، المقفى، ج ٦، ص ٤٤٦، خالد بن عبد الرحمن القاضي، الحياة العلمية في مصر الفاطمية، ص ١١١.

[٤] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٤٦ – ٢٤٩، محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص١٠٣.

والقاضي والشهود والتجار والناس كافةً لاستقبال المؤتمن سلطان الملوك أبي تراب حيدرة [١] أخي الوزير المأمون عند قدومه للإسكندرية عام٥١٧هـ/١١٢٣م، ومعهم المصاحف والشموع، وكان قد خيم بظاهر المدينة، فخرج الإمام أبو بكر الطرطوشي للسلام عليه[٢]، وهذا يدل على العلاقة الطيبة بينهما بل ربما كان هذا لمودة قديمة كانت بين الطرفين.

كما استطاع الإمام السلفي بعلمه وحسن أخلاقه من كسب ثقة الناس، والدولة فيفيد الصفدي أنه اشتهر في الإسكندرية وحظى بمكانة مرموقة عند حكام مصر وتمتع بالثراء والكلمة النافذة رغم مخالفَته لهم في المذهب[٣]، ونستنتج من هذا النص أن هناك علاقة ودية ووثيقة كانت تربط الفقيه السلفي بالدولة الفاطمية، لذا كان يتمتع بحرية تامة لنشر مذهبه.

كما كانت لصلاح الدين معرفة وصداقة حميمة بالشيخ السلفي، ولعل تلك العلاقة الودية نشأت من خلال زيارته المتكررة للإسكندرية، مما جعلته يحفظ له قدره ومكانته وعلمه.ويذكر المقريزي في هذا الصدد أن السلطان صلاح الدين سمع من السلفي بالإسكندرية،وأكل عنده طعامًا ثم أرسل السلطان إليه مالاً فقبله.[٤]

---

[١] هو أبو تراب حيدرة بن فاتك بن مختار، المؤتمن، الملقب بسلطان الملوك، نظام الدين، ابن الأمير نور الدولة أبي شجاع، نشأ بالقاهرة وانضم لحاشية الأفضل، ثم ولي الإسكندرية والأعمال وغيرها سنة ٥١٧هـ /١١٢٣م، قبض عليه مع أخيه المأمون عام ٥١٩هـ/١١٢٥م.(المقريزي، المقفى الكبير، ج٣، ص٣١٩-٣٩١)

[٢] المقريزي، المقفى، ج٣، ص٣٩٢، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص٢١١-٢١٢

[٣] الوافي بالوفيات، ج٧، ص٢٣١، السبكي، طبقات الشافعية، ج٦، ص٣٧، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص٣٧.

[٤] المقريزي، المقفى، ج٢، ص٧، وفي هذا الصدد تذكر بعض المصادر أن صلاح الدين الأيوبي عندما حضر عند الحافظ السلفي بالإسكندرية لسماع الحديث كان صلاح الدين يتحدث في أثناء الدرس مع أخيه توران شاه، فزجرهما الشيخ، وأراد منهما الانتباه لحديثه.(السبكي، طبقات الشافعية، ج٦، ص ٣٨، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص٣٧).

ومما لا شك فيه أن المغاربة لعبوا دوراً بارزاً في تنشيط الحركة العلمية في ثغر الإسكندرية؛ حيث تخرج بالثغر كثير من العلماء كان معظمهم من النازلين بها من بلاد المغرب والأندلس،ومنهم اليسع الغافقي الأندلسي[١](ت٥٥٧هـ) الذي سكن الإسكندرية وأقرأ بها،وأكرمه الناصر صلاح الدين [٢].

كما سكن الإسكندرية الشاعر أبو عمران موسى بن علي السخاوي (ت٥٧٢هـ) الذي أثنى على فضائله الأمير عز الدين بن مصال للعماد الأصفهاني، وأنشده من شعره الرقيق ولما أوقع ابن مصال بعرب جهينة في صعيد مصر وجيء بهم إلى القاهرة إلى القاضي الفاضل سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، مدحه السخاوي بقصيده طويلة، وأثنى صلاح الدين الأيوبي على براعته في النظم، وكان يسمى" البليغ " لبراعته في النثر أكثر من الشعر[٣].

---

[١] أبو يحيى اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي الأندلسي الجياني، من أصل كورة جيَّان، ثم سكن بلنسية والمرية، وأقرأ بها، أخذ القراءات عن والده أبي الاصبع- وكان أبوه من جلة المقرئين- رحل اليسع بن عيسى إلى الإسكندرية، وأقرأ بها مدة، ثم رحل إلى مصر(أي الفسطاط)، فاشتمل عليه السلطان صلاح الدين، ورتب له معلومًا وافرًا، وتصدر للإقراء، كما كان فقيهًا مشاورًا محدثًا حافظًا نسَّابة، وله تاريخ في محاسن المغرب .توفي في سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م.(ابن الزبير الغرناطي(ت٧٠٨هـ)(صلة الصلة، تعليق جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص١٨٢، الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق طيار آلتي فولاج، إستانبول، ١٩٩٥م، ج٣، ص١٠٤٣-١٠٤٤، خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٨، ص١٩١).

[٢] ابن الجزري(ت٨٣٣هـ) غاية النهاية في طبقات القراء، اعتنى بتصحيحها ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م، ج٢، ص٣٣٥، السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٤٩٦، المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٣٧٩، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص١٧٤.

[٣] العماد الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، ج١، ص١٧٠-١٧٢.

### ٣- الصدام بين السلطة والفقهاء:

على الرغم من العلاقة الطيبة التي جمعت وزراء الدولة الفاطمية بمصر وعلماء الإسكندرية في كثير من الأحيان، فإنها لم تخلُ الأمور من بعض التوترات والصدامات التي أفضت للمساءلة أحيانًا، ولسوء المعاملة أحيانًا أخرى، حتى وصل الأمر لدرجة الاعتداء عليهم، وبغضهم ونبذهم، وذلك نتيجة ارتكابهم بعض الأخطاء، التي كان من الممكن التغاضي عنها؛ لما كان لأولئك العلماء من مكانة عند أصحاب القرار. مثلما حدث مع العالم أُمية بن أبي الصلت الأندلسي الذي كان على علاقة طيبة بالوزير الأفضل شاهنشاه إلا أن ذلك لم يشفع له عنده عندما أخطأ، فقيل إنه نفاه من مصر عام ٥٠٥هـ/١١١١م، وبعض المصادر تذكر انه سجنه بعد أن غضب عليه[١]

أما أسباب حبسه فقد أفاد ياقوت الحموي بأنها بسبب فرية ووشاية من بعض الحاسدين من حاشيته، بعد تقربه من الخليفة الآمر بأحكام الله واتصاله بوزيره الأفضل شاهنشاه ، فحبسه الوزير في خزانة الكتب(المكتبة) حيث قضى في سجنه هذا ثلاث سنوات وشهرًا.[٢]

وثمة رواية أخرى لابن أبي أصيبعة[٣] ترجع سجنه لإخفاقه في انتشال مركب غارق كان محملاً بكمية من النحاس، كما كان فيه مال للسلطان(يقصد الوزير الأفضل)، والتزم أُمية بن أبي الصلت بإخراجه، فوافق قاضي الإسكندرية المكين أبو طالب ابن حديد[٤] بعد أن أخذ موافقة الوزير الأفضل على ذلك، الذي

---

[١] ابن ميسر، المنتقى، ص ١٢٠، الذهبي، تاريخ، ج ١١، ص ١٥٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٤٣-٢٤٦.

[٢] معجم الأدباء، م٧، ص٥٣ -٥٧.

[٣] عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٥٠٢.

[٤] ابن ميسر، المصدر السابق، ص١٢٠.

بدوره اقترح عليهم عمل حبال لإخراجها فجمع القاضي ابن حديد رجال البلدة له لجر المركب من البحر، فاكتفى بالقليل منهم، ولكن تقطعت الحبال الموثق بها المركب فغرق المركب ثانية، وردت في وجوه الناس الماء، وصدورهم، وشق ذلك على ابن حديد فأهان أبا الصلت أمام الناس، وأوغر صدر الوزير الأفضل عليه[١] فاستاء ابن حديد منه وغضب، وحرض الأفضل عليه،فحمله للقاهرة ،سجنه هناك بسجن يدعى المعونة [٢] ثم خرج من سجنه بقصيدة استعطف فيها الأفضل [٣]مما يعني أن ابن حديد كان سببًا في اعتقاله، ومما يدل على ما كان عليه الوزير الأفضل أحياناً من قسوة تجاه هؤلاء العلماء.

وتوترت العلاقات بين العلماء والسلطة أحياناً ووصلت ذروة ذلك حينما أعلن الطرطوشي من مسجده أن الفاطميين ضالون، وذكر أنه كان سبب هدايتهم[٤] ويبدو أن إقامة الطرطوشي في الإسكندرية لم تكن في البداية طيبة، بل حدثت جفوة بينه وبين أولي الأمر(السلطة)،وقيل إنه دخل على الأفضل شاهنشاه فوعظه حتى أبكاه، ثم تغير عليه الأفضل فحبسه بعد أن أخرجه من الإسكندرية، وألزمه المقام في حجرة بمسجد في الفسطاط، ومنع الناس من الأخذ عنه [٥] لكي

---

[١] المقريزي، المقفى، ج ٢، ص ٢٤٠ .

[٢] هو سجن في القاهرة عُرف بذلك إشارة إلى كونه دارًا للشرطة في البداية؛ لأنّ المعونة والأعوان هم الشرطة، ثم ا تُّخذ سجنًا، المقريزي، المقفى، ج ٢، ص ٢٤٠، لؤي ابراهيم بواعنة، دور علماء السنة، ص ٦٠.

Crone , P. Mauna , Encyclopaedia Of Islam , New Edition , Leiden , London ,1979,v4,p848.

[٣] ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٠، المقريزي، المقفى، ج ٢، ص ٢٤٠، ابتسام دهينة، التصوير الفني في شعر أبي الصلت امية بن عبد العزيز، مركز الكتاب الأكاديمي، ٢٠٢٠م، ص١٢-١٣، لؤي إبراهيم بواعنة، دور علماء السنة، ص٦٠.

[٤] ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٢٤٦.

[٥] القاضي عياض، الغنية، ص٦٣، السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص ٤٥٢.

لا يدفعهم إلى التمرد ضد الخلافة الفاطمية.[١]

أما عن سر تلك الجفوة، فربما يكون سببها التفاف أهل الثغر حول الطرطوشي، وخروجه في موكب ضخم من طلبته، مما أثار غضب ابن حديد قاضي الثغر، وأشعره بخطورة الطرطوشي[٢] يضاف إلى ذلك ما كان الطرطوشي يفتي به مما يتعارض مع مصالح الدولة؛ لأنه كان كثير الإنكار علي بني حديد قضاة الإسكندرية، فامتد لسانه بتجريحهم لأخذهم المكوس المحرمة[٣]، وإعانتهم على الظلم، ونقلوا عنه أيضًا أنه قال بتحريم الجبن الرومي[٤] وأفتى بقطع محرمات كثيرة، فرفع ابن حديد ذلك كله إلى الأفضل، وكثرت به الوشايات وتغير قاضي

---

[١] أوضح ابن خلكان أن الأفضل أنزل الشيخ الطرطوشي في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد، وكان يكرهه، فلما طال حبسه قال لخادمه: إلى متى نصبر؟ اجمع لي المباح (الطعام)، فجمع له فأكله ثلاثة أيام، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه:رميته الساعة (أي دعا عليه) فما لبث أن استجاب الله دعوته ومات الأفضل مقتولاً سنة **٥١٥**هـ/**١١٢١**م، وخلفه في الوزارة المأمون البطائحي، فلما سمع بالطرطوشي أطلق سراحه، وأكرمه، واستمع إلى نصائحه وإرشاداته فعمل بها.(وفيات الأعيان، ج٤، ص**٢٦٣**، ابن فرحون، الديباج المذهب، ج**٢**، ص**٢٤٦**، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٦، ص**١٠٣**).

[٢] ابن فرحون، المصدر السابق، ج**٢**، ص**٢٤٦**.

[٣] ابن فرحون، نفسه، ج**٢**، ص**٢٤٧**.

[٤] سئل الإمام الطرطوشي عن أمر الجبن الرومي الذي تحمله الروم بالسفن إلى الإسكندرية أهو محرم أم مكروه أم مباح، فبين الفقيه أنه يباح أكل الجبن وبيعه وشراؤه، طالما لم يختلط به خمر أو لحم خنزير أو لحوم غير مذبوحة على الشريعة الإسلامية، كما بين الطرطوشي بأن تجارة الجبن مع الروم تصبح محرمة في حال ضربهم الماشية حتى الموت، كما كانت لهم أشياء في ذبح المواشي والدجاج طرق حرمها الإسلام، ويبدو أن ذلك لم يعجبهم، وخالف هواهم وسياستهم.(الطرطوشي، رسالة في تحريم الجبن الرومي وكتاب تحريم الغناء والسماع، ط١، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، **١٩٩٧**م، ص**١٢٥**-**١٣٢**، القرافي (ت**٦٨٤**هـ)، الذخيرة، ط١، تحقيق محمد بو خبزة، دار الغرب الإسلامي، بيروت **١٩٩٤**م، ج**٤** ص**١٢٤**).

الإسكندرية من جهته، بعد أن كانت بينهما تواصل ومودة، فصار ينحرف عن الطريق كلما لقيه قادمًا عليه رغم أنه أوصى بألا يغسله ولا يصلى عليه عند موته غير الطرطوشي.[١]

كما توترت علاقات المتكلمين الأندلسيين مع السلطة وأيضا مع فقهاء السنة بالإسكندرية، فكان هذا الصدام بينهما صداماً حتمياً، لما كانت عليه الإسكندرية من اتباع للسنة، فقد ورد في بعض المصادر أن محمد بن تومرت لما رحل إلى المشرق لطلب العلم واستقر به الأمر إلى مدينة الإسكندرية في سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م،تردد على مجلس الفقيه الطرطوشي، ويفهم من النصوص أن محمد بن تومرت اتبع اسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطريقة غير مألوفة في المجتمع السكندري، مما أدى إلى أن نفاه متولي الإسكندرية عن المدينة سنة ٥٠٥ه/١١١١م، وقيل في سنة٥١١هـ/١١١٧م[٢]، كما حدث أيضًا تنافر بين السلطة وأهل الكلام من الأندلسيين، فقد تردد محمد بن إبراهيم المهري على مجلس الإمام الحافظ السلفي لطلب العلم، كما حضر مجلس الفقيه ابن عوف ولكن

---

[١] أنشد الحافظ ابو بكر عند قبر القاضي بن حديد قصيدة يرثيه فيقول:

نَسجت عليه العنكبوتُ مُلاءةً ما قدّ من زَوّاره الخيطان

هذي قبورهم وتلك قصورهم واعلم بأن كما تدين تُدانُ

(الضبي، بغية الملتمس، ج١، ص ١٧٨-١٧٩، ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٢٤٦-٢٤٧، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص١٢٥).

[٢] كان مرور محمد بن تومرت يالإسكندرية في عهد الآمر بن المستعلي وقد ذكر ابن خلكان أنه قبل قدومه إلى الإسكندرية، كان قد ناله بمكة شيء من المكروه، لشدته أيضًا في الإنكار على الناس لما يخالف الشرع، فكان ذلك سبب خروجه من مكه إلى مصر، ثم كان إبعاده عن الإسكندري.(المراكشي(ت٦٤٧هـ) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩م، ص١٧٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٤٦-٤٧، المقريزي، اتعظ الحنفا، ج٣، ص٥٦).

ابن عوف لم يرضى عن تصرفاته وأحواله المخالفتة لمنهج أهل السنة، فأوصى والي الإسكندرية بطرده وإخراجه من المدينة لأنه من المنحرفين عن الدين. [١]

كما نال القاضي الرشيد أبو الحسن بن الزبير الأسواني[٢] الحظوة عند ملوك مصر، ومدح وزراءها، وكان خال الموفق ابن الخلال[٣]رئيس ديوان الإنشاء الفاطمي وقد ولي نظر الإسكندرية في الدواوين السلطانية، فأرضى الناس خاصة الفقهاء، وحضر دروس السلفي، وقتل ظلمًا في سنة **٥٦٣هـ/١١٦٧م**، دخل الإسكندرية مع الناصر صلاح الدين واتهم بالتآمر مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، فقبض عليه شاور وعذبه، وأمر بقتله.[٤]

وأوضح المقريزي أن الإسكندرية كانت أقرب إلى قلب العزيز عثمان(ابن صلاح الدين) من أية مدينة أخرى، وأنه رفض ما بذله له عبد الكريم بن علي

---

[١] ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س٨، م٥، ص١٤٨-١٤٩.

[٢] هو أبو الحسين أحمد ابن القاضي الغساني الأسواني، من أسرة أسوانية اشتهرت بالعلم والشعر، ولد بأسوان وهاجر منها إلى مصر فاتصل بملوكها، ومدح وزراءها، وتقدم عندهم وكان من أفراد الدهر فضلاً في فنون كثيرة من العلوم، وكان إلى ذلك شاعرًا ممتعًا، قتله شاور سنة انتين وستين، وفي رواية أخرى سنة ثلاث وستين ظلمًا لميله لأسد الدين شيركوه.(العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ج١، ص٢٠٠-٢٠١، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، م٤، ص٥١-٥٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٦٠-١٦١).

[٣] أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال الملقب بالموفق، صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ أبي الميموم عبد المجيد العبيدي، وحين ضعف ابن الخلال عن القيام بأعباء الوظيفة لكبره ومرضه، تولى القاضي الفاضل مكانه وكان يقوم به وبأهله حتى توفي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م.(ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص٢١٩، ابن كثير(ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، ط١، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢م، ج١٢، ص٣٢٨).

[٤] السلفي، معجم السفر، (ترجمة رقم ١٥٤-١٥٥)ص٥٧-٥٨، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص١٧٥.

البيساني[١] أخو القاضي الفاضل للظفر بقضاء الإسكندرية، وكان مالاً جزيلاً يقدر بأربعين ألف دينار، وكان العزيز وقتها في حاجة شديدة للمال، لكنه رده إلى صاحبه؛ بسبب ما عرف عن عبد الكريم من سوء الخلق.[٢]

ومن الشعراء الذين تعرضوا للتعذيب والقتل من قبل الخلفاء، الشاعر السكندري علي ابن عياد(ت٥٢٦هـ/ ١١٣١م)[٣] الذي يذكر ابن ميسر أنه لما تولى أحمد بن الأفضل الوزارة، واعتقل الخليفة الحافظ، ودخل عليه الشعراء للتهنئة كان من جملة من أنشده ابن عياد، الذي أنشده قصيدة ذم فيها خلفاء الفاطميين وسوء

---

[١] هو أخو القاضي الفاضل، وكان واليًا على إقليم البحيرة ومشرفًا على شئونه المالية فترة طويلة فتجمعت لديه أموال كثيرة، وأثرى ثراء فاحشًا ثم صرف عن عمله، وسكن هو وزوجته الموسرة في ثغر الإسكندرية. (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٣٩-٢٤٠).

[٢] أساء عبد الكريم بن علي البيساني عشرة زوجته، فاضطر أبوها إلى الالتجاء إلى قاضي الإسكندرية لأخذها بعد أن أثبت للقاضي عظم الضرر الذي لحق بابنته، وكان عبد الكريم بن علي البيساني قد أغلق عليها الدار من داخله، فأمر القاضي بنقب أحد جدرانه، وأخرج المرأة، وسلمها إلى أبيها، وأعاد بناء الثغرة فغضب عبد الكريم لتصرف القاضي، وعزم على السعي لعزله والظفر بمنصب قاضي الإسكندرية مكانه مهما كلفه ذلك؛ نكاية في قاضي الإسكندرية فعرض هذا المبلغ على العزيز عثمان، لكنه رفض وأمر الأمير فخر الدين جهاركس الذي حمل إليه المال بأن يرد المال إلى صاحبه، وأن يبلغه بعدم تكرار هذا الصنيع مرة أخرى.(ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٨٤-٨٥، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٣٩-٢٤٠، عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة الإسكندرية، ص٢٤١).

[٣] علي بن عياد الإسكندري(ت٥٢٦هـ) يعرف بابن القيم، من أهل الإسكندرية كان أبوه قيم جامعها .اشتهر في عهد الخليفة الآمر الفاطمي ثم كان شاعر الوزير أحمد بن الأفضل الجمالي في عهد الحافظ، وكان مقرباً منه وأصبح شاعره، وانتهى الأمر بمقتله ومعه أحمد بن الأفضل على يد الخليفة الحافظ. (الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢١، ص٢٤٥، خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٤، ص٣١٧).

اعتقادهم ذمًا قبيحًا.[١]

وأيضًا من الشعراء الذين أساءوا إلى أنفسهم أبو محمد عبد الله بن يوسف بن النطاع القروي الملقب بالمهذب، وكان يحضر عند السلفي في مدرسته وكان بارعاً في الشعر ولكنه دخل فيما لا يعنيه، فصدر عليه الحكم بالإعدام وتم سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م.[٢]

### ٤- مواقف الفقهاء من قضايا السلطة

كثيرًا ما احتاج المسئولون والقائمون على السُّلطة في الدولة الفاطمية بمصر إلى خبرات العلماء والفقهاء، وربما إلى مؤازرتهم في كثير من القضايا، وقد برز هذا الدور بوضوح في الصراع الذي احتدم بين ركني السُّلطة السياسية في الدولة:الوزير رضوان بن ولخشي والخليفة الحافظ لدين الله عام ٥٣٢ هـ/١١٣٧م، عندما حاول الوزير خلع الخليفة وقال عنه: "ما هو بخليفة،ولا إمام، وإنما هو كفيل لغيره"[٣]، وسعى لتحقيق غرضه جاهدًا وحاول الحصول على موافقة علماء الدولة وفقهائها عليه من السنة والشيعة، وظن أن بإمكانه الحصول على فتوى منهم بخلعه،

---

[١] أول أبيات هذه القصيدة : تبسم الدهر لكن بعد تعبيس
إلى أن قال في ذم الحافظ:
هذا سليمانكم قد رد خاتمه واسترجع الملك من صخر بن إبليس
فأمر الحافظ بإحضاره، وطلب منه أن ينشده قصيدته، ثم أشار إلى غلمانه فانهالوا عليه بالضرب فما زالوا يضربونه حتى مات، وذلك سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م.(ابن ميسر، المنتقى، ص١٢٧-١٢٨، العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ج٢، ص٤٣، العمري(ت٧٤٩هـ) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج١٨، ص٢٢-٢٣).

[٢] السلفي، المصدر السابق، (ترجمة رقم ٥١٣) ص١٦٣، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص١٧٤.

[٣] ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٥١-٥٢.

فجمعهم، وكان ممن جمعهم من علماء الشيعة فقيه الإمامية[١] ابنُ أبي كامل[٢] والفقيه ابن سلامة[٣]، ومن علماء السنة الفقيه أبو الطاهر ابن عوف، المقيم بالإسكندرية، وفاوضهم في خلعه، واستخلاف شخص عيَّنه لهم، وألزم كلاً منهم أن يقول ما عنده، فكان رأي ابن عوف أن الخلع لا يجوز إلا بشروط تثبت شرعًا [٤] كما خالفه علماء الإمامية في ذلك، وذكر ابن أبي كامل أن الوزير يحمله على أن يتكلم على غير

---

[١] الإمامية : هم القائلون بإمامة علي بن أبي طالب بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وهم الذين شايعوا عليا على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وسبب التسمية لقولهم بأن الدنيا لا تخلو من إمام، وأنه كالنبي يحتاج إليه في أمر االدين والدنيا، ومصطلح الإمامية ظهر بعد شيوع مصطلح الشيعة، وهذا اللقب يطلق على مجموعة من الفرق الشيعية، ولكن تخصص فيما بعد عند جمع من المؤلفين وغيرهم بالاثنى عشرية. (ابن حزم(ت٤٥٦هـ) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط٢، تحقيق محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م، ج٣، ص٢٧٠، الشهرستاني(ت٥٤٨هـ)الملل والنحل تحقيق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٢، ص١٦٣-١٦٦، ناصر بن عبد الله القفاري، أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية، ط٢، د.ن، ١٩٩٤، ج١، ص١٠٠-١٠٣).

[٢] هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبي كامل، كان قاضي الإمامية ومن كبار فقهائهم، وكان أحد القضاة الأربعة الذين عينهم الوزير الأفضل كتبغا (ت ٥٢٥ هـ)، ولي القضاء بعد القاضي مُجلى بن جُميع، وأضيفت إليه الدعوة، وناب عن الخليفة الفائز في الخطابة في الأعياد، ولقب بضياء الدين فخر الأمناء.وباشر القضاء إلى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، وقتل في محاولة اعادة الدولة الفاطمية سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م.(ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ١٥٣، والمقريزي، المقفى، ج ٦، ص ٥٣٤ ).

[٣] القاضي مكين الدولة أبو الطاهر إسماعيل بن سلامة الأنصاري الجلجولي، كان يلقب بالموفق في الدين، تولى الدعوة من عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م إلى عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م، وفوض إليه الحافظ لدين الله القضاء عندما عزل ابن الأزرق عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، وتوفي عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م.(المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٧٣-١٧٤، ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، رفع الإصر عن قضاة مصر، مطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٢١).

[٤] ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٥٢، المقريزي، اتعاظ، ج٣، ص١٦٦.

مذهبه في الإمامة، وأنه لا ينبغي لمن لم تكن له إمامة أن يخلع، أما الفقيه ابن سلامة، فذكر بأنه داعية من دعاة الخلافة الفاطمية وأنه غير مقبول أن ينادي بخلع الخليفة، فقابله الوزير بالسبّ ونهره في مجلسه [١] وهذا يعني أن الرد لم يعجبه، فقام الفقيه النحاس[٢] وكان حاضرًا، بحمله على خلعه، وأبلغ مجلس الحافظ بذلك[٣] ويدل موقف الفقيه ابن عوف على أمانة في قول الحق وعدم الخوف أو التردد فيه بما يقتضيه الدين والشرع، لا ما تحكمه مصلحة السلطة السياسية ومآربها، مما يعني أن فقهاء السنة بالإسكندرية -ممثلين في الفقيه ابن عوف- كانوا على قدر المسئولية.

وكان الفاطميون يسيرون على قاعدة تقضي بأن ترث البنت الوحيدة الميراث كله مع وجود العصبة، وكانت النظم الوضعية المتبعة في العصر الفاطمي تقضي أيضًا بأن يأخذ أمناء الحكم – أي الموظفون القضائيون المشرفون على شئون الميراث-ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة، وكان الطرطوشي يرى في الأمر الأول مخالفة للشرع في نظره، أي للمذاهب السنية، فالمذاهب السنية ترى ألا ترث البنت أكثر من نصف التركة، وكان يرى في الأمر الثاني ظلماً فاحشاً واغتصاباً لحق الأيتام، ومن واجب السلطة أن تحافظ على أموالهم وتصونها لا أن تقتطع جزءاً منها لموظفيها [٤]، فذهب الطرطوشي لمقابلة المأمون بالقاهرة لهذا السبب-بعد أن فاوض الوزير الأفضل فلم يجد منه أذنًا مصغية-وأبدى المأمون في البداية

---

[١] ابن الطوير، المصدر السابق، ص ٥٢، المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٦.

[٢] ابن النحاس محمد بن نصر بن الحسين، المقريء المعروف بالفقيه النحاس، إمام الجامع العتيق بمصر، حدث بكتاب الشهاب للقضاعي في عام ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م.(المقريزي، المقفى، ج ٦، ص ٣٩٥ ).

[٣] ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٥٢، المقريزي، اتعاظ، ج٣، ص١٦٦-١٦٧، لؤي إبراهيم بواعنة، دور علماء السنة، ص٦١-٦٢.

[٤] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٨٩ - ٩٢، المقريزي، المقفى، ج ٦، ص ٤٤٤ – ٤٤٦، جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية، ص٧٩.

ممانعته،ورفضه لغير ما سار عليه أهل مذهبه، وأنه لم يحدث في أيامه، وأنه يتفق ومذهب الخليفة، فليس من اليسير أن يوافق على تغييره، وبعد نقاش طويل وافق على إصدار أمر للقضاة بأن يتبع في الميراث مذهب الميت [١]. أما الأمر الثاني فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الأولى لأنه رأى فيه إجحافاً حقيقياً بأموال اليتامى وحقوقهم، وأمر بأن يصرف للموظفين -أمناء الحكم- راتب من خزانة الدولة بدلاً من المبالغ التي كانوا يقتطعونها من أموال اليتامى، فأمر الوزير أن يكتب بهذا، وبتعويض أمناء الحكم عما كانوا يتقاضونه من ربع العشر بتقرير جارٍ لهم في كل شهر من مال الديوان على المواريث الحشرية.[٢]

وهذا يدل دلالة واضحة على ما كان للعلماء والفقهاء بالإسكندرية من مواقف تجاه قضايا عامة تخدم الأمة بأكملها، وتغيير بعض المفاهيم الدينية الخاطئة من خلال الطريقة التي عومل بها الفقيه الطرطوشي؛ إذ نوقش رأيه بالتي هي أحسن كما أنه لم يرجع خالي الوفاض بل قبل منه ما يتعين قبوله، على الرغم من أنه لم يكن أماميًا ولا إسماعيليًا ، وجعل الحكم حسب مذهب كل شخص .

وواصل فقهاء الإسكندرية نضالهم، وصارت مدينتهم معقلاً للقوى السنية، بمرأى ومسمع من الفاطميين، حتى إنهم استقبلوا قوات السلطان نور الدين

---

[١] المقريزي، اتعاظ، ج ٣، ص ٨٨ - ٨٩، المقريزي، المقفى، ج ٦، ص ٤٤٣ – ٤٤٤.

[٢] المقريزي، اتعاظ، ج ٣، ص ٨٩، المواريث الحشرية: مال من يموت ولا وارث له بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له.(القاضي النعمان(ت٣٦٣هـ) المجالس والمسايرات، ط١، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح، محمد اليغلاوي، دار المنتظر، بيروت، ١٩٩٦م، ص٩٧، ابن الطوير، نزهة المقلتين، حاشية المحقق، رقم٣، ص ٩٢، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٤، أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص٣٥٣-٣٥٦.

356(Fyzee,A.A.A.,” The Fatimid Law of Inheritance”, SI IX(1958) ,PP.61-69.

محمود عام ٥٦٢هـ/١١٦٢م ،ووقفوا معها ضد الفاطميين والصليبيين، برئاسة واليهم ابن مصال، وفقهائهم وعلى رأسهم الفقيه المالكي أبو الطاهر إسماعيل بن عوف.ويصف المقريزي هذا الاستقبال فيقول:" ومضى شيركوه إلى الإسكندرية، فخرج إليه أهل الثغر، وفيهم نجم الدين بن مصال والي الثغر وقاضيه الأشرف بن الحباب وناظره القاضي الرشيد بن الزبير، وسروا بقدومه وسلموه المدينة.[١]

ولم يكن هذا الاستقبال العظيم إلا إعلانًا عن فرحة أهل الثغر بشيركوه، الذي وجدوا فيه البطل المنتظر الذي سيرفع راية السنة، ويؤكد ذلك أبو شامة ما ذكره بأن أسد الدين خرج بقواته إلى ثغر الإسكندرية، وجبى ما في طريقه من القرى، ووصل إلى الإسكندرية فسلمها أهلها إليه لميلهم إلى مذهب السنة وكراهتهم لرأي الفاطميين الشيعة.[٢]

وترك شيركوه ابن أخيه(صلاح الدين) واليًا على الثغر ومعه نصف الجيش، واتجه هو إلى الصعيد، بينما شاور قد تمكن من جمع بقية قواته، وأعاد تنظيم صفوفها،وعاد بمن معه من خلفائه الفرنج فضرب الحصار على مدينة الإسكندرية، وطال ذلك الحصار حتى بلغ أربعة أشهر.[٣]

وتجلت روح الإسكندرية الجهادية سنة ٥٦٢هـ/١١٦٢م،فوقف أهلها مع صلاح الدين وقدموا له كل العون، ورفضوا الإغراءات كلها التي قدمت لهم من قبل شاور، الذي وعدهم أن يعفيهم من المكوس وغيرها من الضرائب المفروضة عليهم إذا سلموه صلاح الدين، غير أنهم رفضوا، فحاصرهم حتى بدأت المؤن

---

[١] الخطط، ج١، ص٤٧٢.

[٢] الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص٩، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٤.

[٣] العماد الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، ٢٠٠٣م، ص٣٩٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٥ ص١٧٠، سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٦.

والأطعمة في النفاذ.[١]

والجدير بالملاحظة هو سرعة استجابة أهل الإسكندرية بزعامة فقهائها لشيركوه وصلاح الدين فبمجرد أن كتب إليهم شيركوه يستعين بهم على شاور الذي أدخل الفرنج وضيع أموال المسلمين،هبوا لنصرته، وأمَّروا عليهم نجم الدين بن مصال، وقاد أهل الإسكندرية الفقيه السكندري أبو طاهر بن عوف الذي حمل السلاح لشيركوه مع ابن اخته، وبعثوا إليه من يخبره أن السلاح واصل إليهم في الطريق.[٢]

ولما تم الصلح مع صلاح الدين، ودخل شاور الإسكندرية ومعه عموري ملك الفرنجة، جاءه مشايخ المدينة للسلام فأغفلهم ولم يأذن لهم في الجلوس إلا بعد أن طلب منه عموري ذلك، فأذن لهم بالجلوس، وعاتبهم على ما فعلوه من المقاومة فسكتوا، لكن أحد الفقهاء-ويدعى أبا القاسم شمس الإسلام مخلوف بن علي المالكي[٣](ت٥٨٣هـ) المعروف بابن جارة-نهض وقال لشاور: نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب كائنًا من كان، فقال له عموري :وحق ديني لقد صدقك هذا الشيخ، فسكت شاور، وأكرمهم بعد هذا اليوم [٤] وفي رواية للمقريزي أن

---

[١] المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٧٢، جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية، ص٥٧-٥٩، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص٢٣٧.

[٢] أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص٥٢٦.

[٣] هو أبو القاسم مخلوف بن علي بن عبد الحق التميمي المعروف بابن جارة نزيل الإسكندرية، مالكي المذهب، وهو أحد الأئمة الكبار، تفقه به أهل الإسكنرية فترة طويلة، توفي في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م.(المنذري(ت٦٥٦هـ) التكملة لوفيات النقلة، ط٣، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م، م١، ص٧٠، الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٧م، ج٣، ص٨٦، ابن العماد شذرات الذهب، ج٦، ص٤٥٤).

[٤] المقريزي، اتعاظ ج٣، ص٢٨٥-٢٨٦.

الفقيه ابن عوف طلب العفو له ولأهالي الإسكندرية بسبب دعمهم لشيركوه فعفا عنهم.[١]

وكان صلاح الدين يعظم الفقيه ابن عوف، ويراسله، ويستفتيه في الأمور الشرعية التي تمس مصالح الدولة والرعية، فعندما كان صلاح الدين بالشام واختلف فقهاؤها في قضية جواز أن يكون الأعمى قاضيًا، بعث إلى القاضي الفاضل بمصر يأمره بالذهاب إلى ابن عوف بالإسكندرية ليستفتيه في هذه القضية عرفانًا من صلاح الدين بقدر ابن عوف ورسوخ قدمه في الفتوى والورع والزهد والتواضع.[٢]

وأخذ صلاح الدين برأي الفقيه ابن عوف في تحديد رسم على صادرات الإفرنج بديوان الإسكندرية (الجمرك) يزيد عن العشر،خصصه مرتبات شهرية لفقهاء الثغر وذريتهم من بعدهم، وجعل السلطان لهذا (الصادر) مديرًا وأعوانًا.[٣]

---

[١] الخطط، ج ١، ص٤٧٣.

[٢] يروى الصفدي هذا الموقف، فيقول إن القاضي ابن أبي عصرون أصيب في آخر عمره في أثناء توليته القضاء، وثار الجدل حول جواز بقائه في منصبه بعد إصابته بالعمى وكان ابن أبي عصرون حريصًا على أن يظل في منصبه فألف رسالة أثبت فيها جواز أن يكون القاضي أعمى، وهو رأي مخالف لبعض المذاهب، وكان صلاح الدين-على ما يبدو-حريصًا على علمائه، وعلى إرضاء ابن أبي عصرون، فكتب للقاضي الفاضل لمعرفة رأي الشيخ بن عوف السكندري في هذا الأمر.(الصفدي، نكت الهميان في نُكت العميان، تقديم احمد زكي بك، المطبعة الجمالية، القاهرة، ١٩١١م، ص١٨٤-١٨٥، شرف الدين موسى بن أيوب (ت١٠٠٣هـ) الروض العاطر فيما تيسر من اخبار اهل القرن السابع الى ختام القرن العاشر، تحقيق مشهور الحبازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٢٠م، ج٢، ص٨٣٦-٨٣٧).

[٣] ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٩٣-٢٩٤، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص١٧٤، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفى أشهر علماء الزمان ص١٤٥، ١٨١، محمد محمد أمين، أوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، ص٦٤.

كما كانت الإسكندرية تتصدر الأحداث السياسية والدينية، ويرجع ذلك إلى ما قام به فقهاؤها فكانت أولى مدن مصر في العصر الفاطمي التي تقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد، وتقيم الجمعة في شتى مساجدها باسم الخليفة المستضيء بالله العباسي، وسبقت بهذا مدينتي الفسطاط والقاهرة. فيذكر أبو شامة نقلاً عن العماد في ديوانه بوصول الخبر بأن الخطبة قامت في الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان وفي مصر(أي الفسطاط) والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشري رمضان للخليفة المستضيء بالله أمير المؤمنين وإقامة شعار بني العباس بها[١] وحينما سقطت الخطبة للخليفة العاضد آخر خلفاء البيت الفاطمي سنة **٥٦٧**هـ/ **١١٧١**م، وهو يعاني سكرات الموت قيل : إن أول رجل خطب للخليفة العباسي بمصر هو الغافقي أبو يحيى الذي كان يقرئ بالإسكندرية [٢] وهذا يدل على موقف العلماء تجاه قضايا السلطة، وتصدرهم للأحداث الجارية. ولما حاول أحد دعاة الشيعة ويدعى قديد القفاص[٣] معاودة الدعوة للفاطميين بها بادر أهل الإسكندرية بالكشف عنه والتصدي لدعوته، فقبض عليه وقتل[٤] مما يدل على أن المذهب الشيعي قد ولى عن الإسكندرية إلى غير رجعة.

---

[١] أبو شامة، الروضتين، ج**٢**، ص**١٢٣-١٢٤**، ابن الشحنة (ت**٨١٥**هـ) روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق سيد محمد مهني، دار الكتب العلمية بيروت، **١٩٩٧**م، ص**٢١٩**، جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية، ص**٥٩-٦٠**، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص**٢٣٦-٢٣٧**.

[٢] ابن العماد، شذرات الذهب، ج**٦**، ص**٣٦٤**، ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ص**٣٣٥**

[٣] هو داعية شيعي فشت دعوته في بلاد الشام وافتتن به بعض أهل مصر حتى حمل إليه أرباب المعايش جزءًا من كسبهم والنساء بعثن إليه نصف أموالهن وقد وجدت هذه الأموال في منزله عند القبض عليه كما وجدت كتب تدعو إلى الكفر والعصيان.(أبو شامة، الروضتين، ج**٢**، ص**١٩٠**، ابن واصل، مفرج الكروب، ج**١**، ص**٢٥٠-٢٥١**).

[٤] أبو شامة، الروضتين، ج**٢**، ص**١٩٠**، ابن واصل، مفرج الكروب، ج**١**، ص**٢٥٠-٢٥١**، آمال رمضان عبد الحميد، الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي، ص**٢٧**.

## ٥- وظائف العلماء والفقهاء في ظل السلطة

لم تقتصر إسهامات علماء الإسكندرية وفقهائها على مشاركة السلطة في الأحداث ومواقفها الداخلية والخارجية،بل تعدتها للمشاركة في الوظائف العامة للدولة، لاسيما المهمة منها، التي تراوحت بين الولاية والقضاء ودار الإنشاء، وبرز منهم: الفقيه محمد بن عبد الرحمن الحضرمي الصقلي الأصل الإسكندراني[١] الذي ناب في الحكم بالإسكندرية عن القاضي أبي المكارم ابن الجياب [٢]، كما رحل ابن الفحام[٣] في طلب العلم فأدرك بمصر ابن هاشم وابن نفيس، وقرأ عليهما بالروايات، وتتلمذ في النحو على ابن بابشاذ[٤] وانتهت إليه رياسة الإقراء بالإسكندرية[٥] وقد وصفه أبو الربيع بن سليمان بن عبد العزيز المقري الأندلسي

---

[١] ولد بالإسكندرية وبرع في الفقه، سمع بالمشرق والمغرب، وكان مالكيًّا، وبرزت أسرته في علم الحديث، وتوفي بالإسكندرية عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م.(الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٤، ص٢٨٥، المقريزي، المقفى، ج ٥، ص٣٧٧).

[٢] هو القاضي الأنجب أبو المكارم المفضل بن أبي الحسن اللخمي المقدسي الأصل المصري الدار، توفي عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٣٩).

[٣] عبد الرحمن بن أبي بكر عتيق بن خلف الصقلي المعروف بابن الفحام، من كبار القراء، رحل من المغرب إلى المشرق فأدرك بمصر ابن هاشم وابن نفيس وغيرهما، وهوصاحب كتاب التجريد في القراءات ولد سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م، ومات في سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م، وروى عنه السلفي.(السلفي، معجم السفر، (ترجمة رقم ٥٥٥-٥٥٦) ص١٧٥، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٨، ص٧٦، السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٤٩٥ ).

[٤] أبو الحسن طاهر بن بابشاذ النحوي، أصله من بلاد الديلم، له العديد من التصانيف وكانت وظيفته بمصر بمثابة المراجع اللغوي في ديوان الإنشاء والمكاتبات، توفي سنة ٤٦٩هـ/١١٧٣م بمصر ودفن في القرافة الكبرى.(ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٥١٥-٥١٦، السلفي، المصدر السابق، ص١٧٥).

[٥] الجزري، غاية النهاية، ج١، ص٣٣٨، العمري، مسالك الأبصار، ج٤، ص١٥٠.

بأنه أعلم الناس بالقراءات سواء في المشرق أو المغرب[١]. كما انتهت رياسة الإفتاء والإقراء بالإسكندرية إلى الفقيه عبد الرحمن الصفراوي الفقيه المالكي المقرئ الإسكندراني.[٢]

واشتهر من فقهاء الشافعية بالإسكندرية أبو الحسين يحيى اللخمي المقدسي الذي تولى قضاء الإسكندرية[٣]،كما برع القاضي الفاضل(ت٥٩٦هـ)في الكتابة والإدارة حيث مارس خلال الأعوام السبعة التي أمضاها في ديوان الإسكندرية ألوانًا عدة من الإدارة، ربما كان منها إدارة الجيش وأنشأ رسائل كانت ترد على ديوان الإنشاء في القاهرة فظهرت بلاغته مما أثار إعجاب الموظفين والكتاب والإداريين، فرأى بعضهم ضرورة عودته إلى القاهرة بينما حاول آخرون وضع عقبات في طريق عودته، وربما كان هؤلاء هم الكتاب الذين تهاجوا معه ونافسوه. فيذكر ابن خلكان إن مراسلات ابن حديد التي كانت تصل إلى القاهرة بخط القاضي الفاضل كانت في غاية البلاغة مما أثار غيرة كتاب ديوان الإنشاء الذين تآمروا عليه، وعارضوا عودته إلى الديوان، لكن القاضي الأثير ابن بُنان-أحد الكتاب المعروفين- دافع عنه وسعى لإعادته إلى القاهرة، وظل القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني يرعى ابن بنان حتى مماته حفظًا لعلمه وجميله عليه.[٤]

---

[١] السلفي، المصدر السابق، ص١٧٥، الجزري، المصدر السابق، ج١، ص٣٣٨، السيوطي، المصدر السابق، ج١، ص٤٩٥.

[٢] جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل الصفراوي الفقيه المالكي المقرئ الإسكندراني، ولد بالإسكندرية سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م، وسمع من السلفي، وتفقه بأبي طالب صالح بن بنت معافي، وقرأ على أبي القاسم بن خلف الله توفي بالإسكندرية سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م، عن عمر يناهز ٩٢ سنة .(الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، م٣، ص١٢٢٩، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٨، ص١٠٣، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص١٨٥).

[٣] السيوطي، المصدر السابق، ج١، ص٤٠٥.

[٤] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص٢٢١.

ويبدو مما سبق أن كتابًا استشعروا تهديدًا من ذلك الكاتب الذي نافسهم في الحاضر كما فضحهم بهجائه في السابق، كما أنه بدأ يتبوأ مكانة مرموقة، وينال احترامًا في الدواوين وصفهما معاصره الشاعر عمارة اليمني[١] -في سياق كلامه عن أهمية عودة عبد الرحيم إلى القاهرة- بقوله:" ومن محاسن أيامه(أيام الملك الناصر رزيك بن الملك الصالح طلائع بن رزيك الذي خلف والده في الوزارة) وما يؤرخ عنها ... خروج أمره إلى والي الإسكندرية بتسيير القاضي الفاضل .... واستخدامه في حضرته وبين يديه في ديوان الإنشاء ".[٢]

ومما لا شك فيه أن القاضي الفاضل برع في منصبه الجديد، وأثبت كفاءة في عمله كاتبًا لديوان الجيش، ونال استحسان مرءوسيه، فتولى رئاسة ديوان المكاتبات الفاطمي بعد وفاة شيخه الموفق ابن الخلال سنة **٥٦٦هـ/ ١١٧٠م**، وتمكن من إقامة علاقات وثيقة مع كبار رجال الدولة في مصر وخاصة الأيوبيين الذين أخذ نفوذهم يتوسع على حساب الفاطميين.[٣]

كما استعان صلاح الدين بالقاضي الفاضل، فجعله وزيره ومستشاره، بعد أن أدرك مواهبه، وأنه على علم واسع وعقل راجح، وفي إمكانه أن يوصله إلى أهدافه في مصر، وكان القاضي الفاضل المتحدث الرسمي بلسان صلاح الدين في الداخل والخارج،ففتح له آفاقًا جديدة،وتبوأ في المقابل منزلة ومكانة رفيعة،أصبح

---

[١] هو أبو محمد نجم الدين اليمني عمارة بن أبي الحسن بن زيدان الحكمي، من قحطان، كان فقيهًا شافعيًّا، وشاعرًا، وله مصنف في الفرائض وكتاب الوزراء الفاطميين، وكان يُنسب إلى موالاة الفاطميين، وله فيهم وفي وزرائهم مدائح، ثم اتهم بالزندقة والكفر المحض، وسبب قتله تآمره مع جماعة من الفاطميين لإعادة الدولة، فأفتى الفقهاء بقتله عام **٥٦٩هـ/١١٧٣م**.(أبو شامة، الروضتين، ج **٢**، ص **١٩٥ - ٢٠٠**، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج**٣**، ص**٤٣١-٤٣٢**، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج **١١**، ص**٨٤٥**.).

[٢] النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، ص**٥٣-٥٤**.

[٣] المقريزي، خطط، ج**٤**، ص**٤٦٣**.

الرجل الثاني في دولة صلاح الدين، ومن كبار المقربين لديه[١] ولا يُقدم على أمر إلا استشاره فيه ولا يحكم في قضية إلا بتدبيره ومشورته[٢] ويؤكد ذلك ياقوت الحموي حيث ذكر أنه فاق بفصاحته وبراعته المتقدمين والمتأخرين[٣] ،كما اعترف صلاح الدين صراحة أمام الناس بالجهود الكبيرة التي بذلها القاضي الفاضل في تثبيت أركان دولته فقد أثنى عليه وعلى علمه ورجاحة عقله وعلى الرغم مما في هذا القول من المبالغة، فإنه دليل على رجاحة عقل القاضي الفاضل، ونجاحه في مهامه، ودوره في قيادة الدولة الأيوبية.[٤]

ثم اختار القاضي الفاضل أحد كتاب عهده لينوب عنه في الكتابة والإدارة خلال ابتعاده عن صلاح الدين لعدم امكانه السفر في كل مرة وهو عماد الدين الأصفهاني الذي غادر دمشق بعد وفاة نور الدين محمود بسبب نقمته على السلطات الدمشقية وما سببته من تفرقة ومؤامرات.[٥]

ومن الفقهاء من رفض، وامتنع عن تحمل مسئولية السلطة والتوظيف كما حدث مع القاضي أبو الحسن الرشيد الأسواني الشاعر المشهور فقد ذكره بعض

---

[١] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص١٥٨ .

[٢] المقريزي، الخطط، ج٤، ص٤٦٣، معالي عبد السلام الحلبي، رسائل القاضي الفاضل السياسية في عهد صلاح الدين، أطروحة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، كلية الآداب، ٢٠١٣م، ص٢٥.

[٣] معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ م، ج١، ص٥٢٧.

[٤] سبط ابن الجوزي(ت ٦٥٤ هـ) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣م، ج١٤، ص٤٧٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٥٧هادية دجاني، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٣م، ص٤٢-٤٣، ٦٩-٧٢،

Al-Fadhll, d NES Egypt and the Egyptlans: A focal point in the policies and literature of Al-Qach –Vol.36, 1977, P.33

[٥] البنداري، سنا البرق الشامي، ص٩٠، أبو شامة، الروضتيين، ج٢، ص٢٥٤، رسائل القاضي ص٢٨

المؤرخين بأنه تولى ولاية النظر بثغر الإسكندرية في الدواوين السلطانية بغير اختياره في سنة **٥٥٩هـ/١١٦٣م**، وأرضى الناس خاصة الفقهاء في العطايا والرواتب[١]، كما عرض على الإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي الخير بن سلامة القضاعي الإسكندري[٢](ت**٦٠٣**هـ)،المالكي قاضي الإسكندرية وناظر الفقهاء أن ينوب في الحكم بالإسكندرية فامتنع وكانت له مكانة جليلة عند الملك السلطان العادل الأيوبي ووزيره وصاحبه الصفي عبد الله بن علي وهو الذي رشحه ليتولى منصب حاكم الثغر فرفض ترفها، فألح عليه أعيان الإسكندرية حتى نزل على رغبتهم وقبل المنصب مكرها، وضم إليه النظر في مساجد الإسكندرية وأحباسها (أوقافها) فكان ابن سلامة أول قاضٍ يجمع بين الخطابة والقضاء.[٣]

وليس أدل على زهده من تركه الرسم الجاري على حكام الإسكندرية قبله، وكان مقررًا في نظر العيار بدار الضرب، فأمر بتوفيره وتخصيصه للعلماء الوافدين على الإسكندرية وغيرهم ولم يتناول ابن سلامة منه شيئًا، فأمر السلطان بحمله إلى بيت المال، ثم قام من بعده الفقيه محمد بن محمد بن سلامة (ت**٦٤٥**هـ) الذي تفقه على عمه الإمام أبي القاسم عبد الرحمن لينوب عنه في حكم مدينة الإسكندرية[٤].

---

[١] السلفي، معجم السفر، (ترجمة رقم **١٥٥**)، ص**٥٨**، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج**١**، ص**١٦٠-١٦١**.

[٢] هو عبد الرحمن بن أبي الخير سلامة بن يوسف بن علي بن عبد الدائم القاضي أبو القاسم القضاعي البلوي الإسكندراني المالكي، ولد سنة **٥٢٠**هـ وولي قضاء الثغر مدة وولي التدريس بالقاهرة بالمدرسة الفاضلية وكان شفوقًا على الطلبة ساعيًا في مصالحهم، وافر المروءة، جم الإيثار، توفي في سنة **٦٠٣**هـ/**١٢٠٦**م.(المنذري، التكملة لوفيات النقلة، م**٢**، ص**٩٨**، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج **١٢**، ص**٦١٣** ).

[٣] محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص**١٨٣**، نقلاً عن مخطوطة مفقودة بعنوان "المفاخر السنية والمآثر المرضية ".

[٤] ابن فرحون، الديباج، ج**١**، ص**٢٤٣**، المقريزي، المقفى الكبير، ج**٦**، ص**١٨٧**، محمد محمود زيتون، المرجع السابق، ص**١٨٣**.

وعرفت الإسكندرية دور الكتب(خزائن الكتب)الموقوفة عليها من الحكومتين المركزية والمحلية، وكان يتولى الإشراف على هذه الكتب القيمة رجال أمناء على العلم فقد ذكر السلفي أن عبد الله الطائي محمد بن الحسن بن زرارة الشاعر الأديب النحوي اللغوي كان يشرف على بيمارستان الإسكندرية، ويتولى الكتب المُحَبَّسَة (أي الموقوف عليها من الدولة ) في الجامع، أي أمينًا لخزانة كتب الجامع بالإسكندرية.[١]

كما قامت الدولة بإنفاق الرواتب والأعطيات للعلماء والفقهاء المشهورين، فأعطي الفقيه أبو بكر الطرطوشي راتبًا يبلغ عشرة دنانير شهريًا، يؤخذ من جزية اليهود[٢] والقاضي الفاضل الذي كانت النخبة من العلماء والفقهاء والأدباء تؤم مجلسه ملتمسة العون والمساعدة[٣]ويدلل على رواتب الدولة للفقهاء ما ذكره الحافظ السلفي عن الرشيد بن الزبير والي النظر بالإسكندرية وإرضائه الفقهاء بصرف المخصصات المالية لهم سنة **٥٥٩**هـ/**١١٦٣**م [٤] كما كان من عادة سلاطين الدولة الأيوبية وملوكها أن يرسلوا الصدقات إلى الإسكندرية،وأن يخصص منها قدر كبير للمدرسين والأئمة والفقهاء في المدارس والجوامع فضلاً عن الرواتب المقررة للطلاب المنقطعين للعلم، لاسيما الوافدين المقيمين بدار المغاربة.[٥]

---

[١] المقريزي، المقفى الكبير، ج**٥**، ص**٢١٦**، السيوطي(ت**٩١١**هـ ) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، **٢٠٠٤**، ج**١**، ص**٧١**.

[٢] ابن فرحون، الديباج المذهب، ج**٢**، ص**٢٤٧**.

[٣] مجير الدين عبد الرحيم البيساني(ت**٥٩٦**هـ)، رسائل القاضي الفاضل، تحقيق علي نجم عيسى، دار الكتب العلمية، بيروت، **٢٠٠٥**م، **٢٢-٢٤**.

[٤] السلفي، معجم السفر، (ترجمة رقم **١٥٥**) ص **٥٧-٥٨** .

[٥] ابن جبير، الرحلة، ص**١٥**.

ومن محاسن صلاح الدين تجاه الفقهاء أن أوقف[١]صادر الفرنج[٢]على الفقهاء بها، ولعل المقصود بذلك الضريبة التي كانت تفرض على تجار الفرنجة القادمين بالتجارة إلى ثغر الإسكندرية، وكان ذلك بناء على رأي تقدم به فقيه الإسكندرية أبو الطاهر بن عوف، ويقضي بتحديد رسم على صادرات ديوان الإسكندرية(هو الجمرك) من بلاد الإفرنج، يخصص لمرتبات فقهاء الإسكندرية وأهليهم من بعدهم، في صورة دنانير تصرف كل شهر. وتبنى صلاح الدين هذا الرأي، وعمل به، وجعل للصادر مديرًا يتولاه ويعاونه موظفون آخرون[٣] وكان مقدار تلك الضريبة يزيد عن العشر، أما في عصر القلقشندي-أي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين-فأصبح خمس قيمة البضائع التي يحملونها.[٤]

**٦- الأثر الديني و الثقافي للعلاقة بين العلماء والساسة :**

نشطت الحياة الدينية من خلال مساجد الإسكندرية في القرن ٦هـ/١٢م، بالاضافة إلى المساجد التي تم تشيدها، ولم يقتصر النشاط الديني والثقافي على المساجد بل امتد إلى المدارس التي ظهرت أيضًا في هذا القرن.

---

(١) الوقف في الشريعة الإسلامية صدقة محرمة، لا تباع، ولا تشترى، ولا توهب، ولا تورث، ويصرف ريعها إلى جهة من جهات البر، ويرجع تاريخ الوقف الإسلامي في مصر إلى السنة الأولى لدخول المسلمين مصر، ويلاحظ أنه منذ ذلك الوقت وحتى بداية العصر الأيوبي اقتصر تأثير نظام الوقف على الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية فقط.(محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م، مقدمة المؤلف، ص١).

(٢) صادر الفرنج هو قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى الإسكندرية، وعليه مرتبات لناس مخصوصين من اهل العلم والصلاح، ينفق عليهم بمقادير معلومة من متحصل هذه الجهة.(القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٤١٦).

(٣) ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٩٣-٢٩٤، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص١٧٤، محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٦٤.

(٤) ابن فرحون، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٣-٢٩٤، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٣.

**الجوامع:**

ازداد عدد سكان الإسكندرية، واتسع عمرانها مع تزايد الهجرة إليها في القرن ٦هـ/١٢م، وكثرت بها المساجد بشكل واضح، حتى إن ابن خزيمة-الذي استقر بها أربعين عامًا منذ عام ٥٦١هـ/١١٦٥م، حيث أفاد بأن بها ثمانمائة مسجد،مائتان منها للخطبة،[١] وبالغ الرحالة ابن جبير-الذي زارها عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م -وذكر إن بها ما يزيد عن ثمانية آلاف مسجد.[٢] وعلى الرغم من مبالغة ابن جبير في هذه الأرقام إلا أنها ترمز أو تشير إلى كثرة مساجد هذه المدينة.

وكان بناء جُل هذه المساجد المذكورة في أواخر العصر الفاطمي، لكن للأيوبيين الفضل الأكبر في ازدهارها.ومن أهم الجوامع التي أنشأها الوزراء لعلماء السنة في الإسكندرية، جامع العطارين الذي أنشأه الوزير بدر بن عبد الله الجمالي عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م ،وسمي بهذا الاسم لوجوده في سوق العطارين حيث تجارة التوابل والعطور الرائجة بالمدينة،[٣] وجمع الوزير مائة وعشرين ألف دينار ضريبة من أهل الإسكندرية لبناء المسجد بعد ثورة ابنه الأوحد[٤] بها .وأصبح هذا الجامع

---

(١) السيوطى، رسالة في فضل ثغر الإسكندرية، نسخة نقلت من المخطوطة المودعة بالمكتبة الأزهرية، برقم ١٣٧٤، لسنة ١٩٢٣، ص٦١، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص١٤٣.

(٢) ابن جبير، الرحلة ص١٧-١٨.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥٠، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢١، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص١٩٠.

(٤) خرج الأوحد بن أمير الجيوش بدر الجمالي على أبيه في سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م، وانضم إليه جماعة من العسكر والعربان وتحصن بالإسكندرية، فسار إليه أمير الجيوش وحاصر الإسكندرية شهرًا، وظل يقاتله حتى طلب أهلها الأمان ودخل البلد وأخذ ابنه قهرًا (المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١١٩، حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٦٧).

مقرًا لدروس كبار علماء الإسكندرية لاتساعه، فتصدر به لإقراء القرآن والنحو الشيخ عبد الله بن الحسن العبدري حتى وفاته عام **٥٢٥هـ/ ١١٣١م** [١] ،كما درس فيه الفقه محمد بن مسلم المازري المالكي(ت**٥٣٦هـ**) وكان لأمين خزانة كتب الجامع النحوي محمد بن الحسن بن زرارة الطائي حلقة للأدب[٢] وأملى النحوي عمر بن يعيش السوسي دروسه في النحو بالجامع،خاصة كتاب سيبويه، واشتهرت حلقته،وأخذ النحو عن هذا الشيخ عدد كبير من أهل الإسكندرية. [٣]

كما بنى الوزير المأمون بن البطائحي مسجد الطرطوشي في عام **٥١٦هـ/ ١١٢٢م** تكريمًا للفقيه الطرطوشي[٤] ولا يزال قائمًا إلى اليوم عند باب البحر، ويضم ضريح الطرطوشي، حيث أمر الوزير المأمون البطائحي بإنشائه من مال ديوانه تكريمًا للإمام،واستجابة لاقتراح تقدم به إليه عندما زاره في القاهرة، وأهداه كتابه(سراج الملوك)عرفانًا بجميل المأمون في إطلاق سراحه. وكتب المأمون إلى قاضي الإسكندرية ابن حديد بتنفيذ فكرة بناء المسجد بظاهر الثغر على شاطيء البحر، وأن يبالغ في إتقانه [٥] فألقى فيه الطرطوشي دروسًا في الفقه خلفه فيها بعد وفاته تلميذه الفقيه سند بن عنان الأزدي(ت**٥٤١هـ/ ١١٤٦م**)[٦].

---

[١] السلفي، معجم السفر، (ترجمة رقم **٥٠٩-٥١٠**) ص**١٦٢**، خالد بن عبد الرحمن القاضي، الحياة العلمية، ص**١٤٣**.

[٢] المقريزي، المقفى الكبير، ج**٥**، ص**٢١٦**، السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج**١**، ص**٧١**.

[٣] السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج**٢**، ص**٢٣٨**.

[٤] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج**٣**، ص**٩٢** .

[٥] ابن فرحون، الديباج المذهب، ج**٢**، ص**٢٤٦**، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص**١٣٧**.

[٦] سند بن عنان بن إبراهيم أبو علي الأزدي المصري اشتهر بالزهد وكان من كبار العلماء، تفقه بالشيخ أبو بكر الطرطوشي وألف كتابًا في الفقه سماه الطراز شرح به المدونة، في نحو ثلاثين سفرًا، وتوفى قبل إكماله توفى سنة **٥٤١هـ/ ١١٤٦م** بالإسكندرية بجبانة باب الأخضر، أو=

**المدارس:**

نشأت المدارس في الإسلام في القرن الرابع الهجري، مركزًا تعليميًا موازيًا للمسجد، وذلك في نيسابور، في منازل بعض كبار علماء الحديث والفقه.ومن أقدم تلك المدارس مدرسة ابن حبان التميمي البستي(ت**٣٥٤**هـ/**٩٦٥**م) في نيسابور، الذي خصص لها جانبًا من داره، وأسكن فيها الغرباء من الفقهاء والمحدثين، وجعل لهم جرايات دائمة، وأتاح لهم فرصة الاستفادة من كتبه [١]، وبعد أكثر من قرن أنشأ الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي(ت**٤٨٥**هـ/**١٠٩٢**م) المدارس النظامية[٢] في العراق وخراسان منذ عام **٤٥٩**هـ/**١١٦٣**م لتدريس الفقه الشافعي

=شارع السكة الجديدة بالإسكندرية الآن.(ابن فرحون، الديباج المذهب، ج**١**، ص**٣٩٩**-**٤٠٠**، السيوطي، حسن المحاضرة، ج**١**، ص**٤٥٢**، جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية، **٩٨**-**١٠٤**).

[١] السمعاني(ت**٥٦٢**هـ) الأنساب، ط**١**، تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، **١٩٨٨**، ج**١**، ص**٣٤٨**-**٣٤٩**، ناجي معروف، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، بغداد، د.ش، د.ت، ص**٤**-**٥**، محمد سعد الدين، المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى، المكتبة العصرية، بيروت، **١٤١٦**ه، ص**١٣**.

[٢] المدارس النظامية من أشهر المدارس التي بنيت في بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، من قبل الوزير نظام الملك وزير السلطان السلجوقي آلب أرسلان (**٤٥٥**هـ-**١٠٦٣**م/**٤٦٥**هـ-**١٠٧٢**م)، وكان الهدف من المدارس في المشرق الإسلامي هو مساندة مذهب أهل السنة أمام المذهب الشيعي الزيدي، واستمرار هذا الوضع في ظل الحكم البويهي إلى أن جاء السلاجقة الذين اعتنقوا الإسلام على المذهب السني وحكموا العراق وفارس وما حولها.(الطرطوشي، سراج الملوك، م**٢**، ص**٥١٦**، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج**٢**، ص**١٢٨**-**١٢٩**، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج**٣**، ص**٩٠**، عماد بن عبد السلام رؤوف العطار، مدارس بغداد في العصر العباسي، دار البصري، بغداد، **١٩٦٦**م، ص**١٠**-**١٢**، عبد الكريم حتاملة، جهود نظام الملك في تأسيس المدرسة النظامية في بغداد والمدارس النظامية الأخرى، بحث منشور جامعة اليرموك، سلسلة العلوم لإنسانية والإجتماعية، **٢٠٠٣**م، ص**١٢١**-**١٢٢**، Talas (A) La Madrasa Nizamiyya et son histarie , Paris,1930; Massignon ,L. ,Les Medresehs se Baghdad, BIFAO, v!!, 1910, pp. 77-86

وغيره من العلوم الدينية.[١]

وفي عام **٥٣٢هـ/١١٣٧م** أنشئت بالإسكندرية أول مدرسة في مصر على يد الوزير الفاطمي رضوان بن ولخشي، كما انتشرت المدارس في العصر الأيوبي، حتى قدر ابن خزيمة عددها سنة **٥٦٠هـ/١١٦٤م**، بمائة وثمانين مدرسة لطلب العلم بها خطاطون لكتابة فتاوى الفقهاء[٢]، فضلاً عن الكتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن.وحرص صلاح الدين على إنشاء عدد من الكتاتيب لتعليم الفقراء والأيتام، وعدَّ ابن جبير ذلك من مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين عامة.[٣]

**١- مدرسة الطرطوشي :**

بعد استقرار الفقيه محمد بن الوليد الطرطوشي في الإسكندرية عام **٤٩٠هـ/١٠٩٦م**، زادت وجاهته،وتزوج امرأة موسرة- خالة فقيه الإسكندرية ابن عوف- منحته بيتها فخصص الدور الأرضي منه لإلقاء الدروس؛ لما شاهده من إقفار المساجد والمدارس من طلاب العلم والعلماء بسبب ملاحقة الفاطمية الشيعة لعلماء السنة بالتشريد والقتل والإيذاء،[٤] ووصل عدد طلابه إلى ثلاثمائة وستين طالبًا، نجب منهم مائتا فقيه مفتٍ [٥]، فصارت داره أشبه بمدرسة أهلية[٦]،

---

[١] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص١٢٨-١٢٩، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٣، ص٩٠.

[٢] السيوطى، رسالة في فضل ثغر الإسكندرية، ص٦١، جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية، ص٨١

[٣] ابن جبير، الرحلة، ص٢٧.

[٤] الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ج١، ص١٧٧-١٧٨، ابن أبي السرور، بلغة الظرفاء، ص٧٦-٧٧، ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج٢، ص٢٤٥-٢٤٧، جمال الدين الشيال، العالم المجاهد أبو بكر الطرطوشي، ص٤٧.

[٥] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص٢٧٢.

[٦] ابن فرحون، الديباج المذهب، ج٢، ص٢٤٥-٢٤٦، خالد بن عبد الرحمن القاضي، الحياة العلمية، ص٨١-٨٢.

وتنامى دور خريجيها في الحياة العامة،خاصة مع دعم وزراء السنة لهم،وتقريبهم إياهم.

**٢- مدرسة ابن حديد:**

وهي تنسب للقاضي ابن حديد المالكي، الذي ولاه الوزير الأفضل قضاء الإسكندرية عام **٤٨٨هـ/١٠٩٥م**[١]،وكانت له وجاهة، ويشرف على الضرائب التجارية بهذا الثغر المهم وقد أوكل التدريس بالمدرسة للفقيه يحيى بن أبي ملول الزناتي[٢] كما قام بالتدريس في مدرسة ابن حديد الفقيه أبو الحسين أحمد بن محمد بن سلامة الإسكندراني(ت**٦٤٥**هـ)[٣] وكانت تلك المدرسة تسمى كذلك المدرسة المكينية،نسبة للقب القاضي ابن حديد الذي ألحق بها مسجدًا وعين فيه إمامًا. [٤]

**٣- المدرسة العوفية :**

وهي أول مدرسة رسمية في مصر في أواخر العصر الفاطمي، أنشأها الوزير السني رضوان بن ولخشي عام **٥٣٢هـ/١١٣٧م**، وسميت لهذا بالرضوانية،كما كانت تسمى كذلك الحافظية وصدر مرسوم بإنشائها من الخليفة الحافظ لدين الله، يتضمن تعيين الفقيه المالكي صدر الدين إسماعيل بن عوف الزهري لتدريس علوم

---

[١] المقريزي، المقفى الكبير، ج٦، ص**٨٥**.

[٢] المقريزي، المصدر السابق، ج**٥**، ص**٢١٦**.

[٣] ابن فرحون، الديباج المذهب، ج**١**، ص**٢٤٣**، وممن تولى التديس والإمامة بالمدرسة المكينية أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عيسى السفاقسي البصير، وكان يؤم الطلاب في هذه المدرسة، وقام بالتدريس بها في العصر الأيوبي أبو الطيب عبد المنعم بن يحيى، وتولى التدريس بها أيضًا أبو البركات محمد بن سلامة القضاعي المالكي المتوفي في سنة (**٦٢٠**هـ/**١٢٢٣**م).(المنذري، تكملة وفيات النقلة، ج**٣**، ص**١٠٦**، السلفي، معجم السفر، (ترجمة رقم**٥٤١**)، ص**١٧١**، سيد محمود عبد العال، مدارس الإسكندرية في العصر الفاطمي، ص**١٢٠**).

[٤] السلفي، معجم السفر، (ترجمة رقم **٥٤١**)ص **١٧١** .

الشريعة فيها فنسبت إليه، ويفصل المرسوم كيفية توزيع الأموال على مصارف المدرسة وطلابها وموظفيها [١] واستمر الفقيه ابن عوف يدرِّس في تلك المدرسة حتى وفاته عام ٥٨١هـ/١١٨٥م ،ودرس بها بعده ابنه ثم حفيده الذي كان أحد كبار المصنفين في المذهب المالكي. [٢]

**٤- المدرسة العادلية "السلفية":**

ومن مدارس الإسكندرية في العصر الفاطمي المدرسة العادلية، والتي أمر ببنائها الوزير الفاطمي العادل بن السلار وزير الخليفة الفاطمي الظافر، لذا كانت تسمى في العصر الفاطمي بالمدرسة العادلية نسبة إليه، شيدها الوزير بن السلار قبل أن يتولى منصب الوزارة، وكان شافعي المذهب كما يذكر السبكي[٣]وهي المدرسة الثانية في الإسكندرية، أنشئت مع تنامي القوى السنية في المدينة لتدريس الفقه الشافعي، وقد أسند بن السلار تدريسها للحافظ أبي طاهر السلفي في سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م[٤]، ومنذ ذلك الوقت انتقل جل نشاط السلفي العلمي لهذه المدرسة، التي يحدثنا عن نشاطها وأحوالها في ثنايا كتابه"معجم السفر"، وألحق بالمدرسة مسجدًا، وعين له إمامًا ومؤذنًا.[٥]

---

[١] المقريزي اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٦٧، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٥٨-٤٥٩.

[٢] ابن فرحون، الديباج المذهب، ج١، ص٢٩٣-٢٩٥.

[٣] طبقات الشافعية، ج٦، ص٣٧، سيد محمود عبد العال، مدارس الإسكندرية في العصر الفاطمي، ص١٢٢.

[٤] ابن الأبار، المعجم، ص٥٦، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٠٥، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١١، ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

[٥] نَظَمَ أبو محمد عبد الوهاب بن إسماعيل بن توهيب الشاعر الوراق السكندري(ت٥٤٧هـ) شعرًا عندما أنشئت المدرسة السلفية على يد العادل السلار، يقول فيه:=

وجدير بالذكر هنا ما ذكره بعض المؤرخين عن هبة وعطايا السلفي للشعراء الذين مدحوا علمه ومدرسته،مثل الفقيه عمارة وابن قلاقس السكندري (ت٥٦٧هـ/ ١١٧١م) الذي أشار في عدة قصائد إلى دعم الوزير الصالح بن رزيك لمصارف المدرسة. [١]

وعمل بالمدرسة السلفية عدد من المعيدين مساعدين لشيخها من طلبته النابهين، وفي معجم السلفي ما يشير إلى ذلك، حيث أفاد في ترجمته لرافع بن يوسف بن زيدون(ت٥٥١هـ) أنه كان ملازماً له وكان يعيد الدرس على أربعين من الصبيان"[٢] وكانت دروس المدرسة متاحة لكل من شاء، فكثر طلابها الذين توافدوا من كل حدب وصوب لينهلوا من علم شيخها الذي ذاعت شهرته، حتى وفد إليها الطلاب من خارج مصر، ومنهم علي بن محمد المخزومي، الذي أخذ عن السلفي الحديث والفقه ثم عاد إلى وطنه الحجاز[٣] وأبو الحجاج يوسف بن محمد القروي، وأبو محمد عبد الله بن عثمان الكزولي، وأبو محمد عبد الله بن الحسن بن

= لله در ( العـــادل ) المرتجـــي ذي العز و التأييد والنصر
بنـــى لنـــا (مدرســـة) ... مثلهـــا لم يبن في دهر و لا عـصر
فأرضـــها كالمســـك جلـــت عـــلى البسط التي تفرش و الحصر
(بغـــداد) دار العلـــم لم تفتخـــر بمثلها قـط عـلى ( مصر )
ومـــا تولاهـــا ســـوى ( الحـــافظ) المعصوم من عي ومن حصر
خيـــر فقيه في الـورى عـــالم تبصره ( كالحســـن البصـري)

(السلفي، معجم السفر، (ترجمة رقم ٧١٣) ص٢١٩، محمد محمود زيتون، الحافظ السلفي أشهر علماء الزمان، ص١٧٣، حسن عبد الحميد صالح، الحافظ أبو طاهر السلفي، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٧م، ص١٠٨-١٠٩).

[١] ابن قلاقس(ت٥٦٧هـ) الديوان، مراجعة خليل مطران، مطبعة الجوائب، القاهرة، ١٩٠٥م، ص٣١-٣٢، ص٦٧-٦٨، المقريزي، المقفى الكبير، ج٢، ص٧.

[٢] معجم السفر، (ترجمة رقم ٢٥٣-٢٥٤) ص٩٠-٩١.

[٣] السلفي، المصدر السابق، (ترجمة رقم ٩٩٠) ص٢٩٧.

علي العذري.كما درس عشرات من المغاربة والأندلسيين في المدرسة ،منهم الفقيه عبد الله بن محمد الزناتي وأبو العباس أحمد بن عمار النابلي، وأبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور التاهرتي.[١]

وكانت هيئة المدرسة تضم غير الأستاذ–الحافظ السلفي– وغير معيديه مؤذنًا يؤذن للناس في أوقات الصلاة، وتوالى على المدرسة عدد من المؤذنين أشار السلفي إلى واحد منهم ومن الغريب أنه يذكر أن هذا المؤذن كان جهوري الصوت[٢].

**٥- مدرسة ابن جارة :**

وكانت مدرسة ومسجدًا في آن واحد، يجتمع فيها الطلاب والفقهاء دارسين، ولكل من المدرس والدارس مرتب شهري-وإن كان ضئيلاً- وقد شيدها الصاحب الوزير الصفي عبد الله بن علي ناظر ديوان الإسكندرية في أوائل عهد صلاح الدين الأيوبي تقديرًا منه لذكرى الفقيه المغربي المالكي السكندري أبي القاسم بن جارة المتوفى في سنة **٥٨٣هـ/١١٨٧م**، الذي كان من أكابر العلماء، ولا يخاف في الحق لومة لائم، وكان يحضر عنده بالمدرسة أعيان الفقهاء وحذاق الطلاب وعلى رأسهم الوزير نفسه. ولما مات ابن جارة انتقلت إدارة المسجد إلى ابنه فمات هو أيضًا في عهد الصاحب، ولم ينجب، فرأى أن يتولاها من يخلف الشيخ على أن يكون له تدريس الفقه والإفتاء بالمدرسة، إحياء لذكرى ذلك العالم الجليل المهيب، فعهد بذلك إلى قاضي الإسكندرية وخطيبها جمال الدين الريغي[٣]،

---

[١] السلفي، نفسه، (ترجمة رقم **٤٥٣-٤٦٣**) ص**١٤٧-١٤٩**

[٢] نفسه، (ترجمة رقم **١٣٦٣**) ص**٤٠٢**، جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية، ص**١٤١-١٤٢**.

[٣] هو العلامة الصالح المفتي جمال الدين أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن سعيد بن قايد الهلالي المغربي المالكي، ولد سنة **٥٤٩هـ/١١٥٣م**، تقريباً بالريغ، وهي بلدة تقع جنوب المغرب،=

الذي أبى أن يتناول على عمله هذا أجرًا ووقف الصاحب على المدرسة ما يسمى بالوقف الضاحكي بالإسكندرية، وقدره ديناران كان القاضي ينفقهما على تعمير مساجد أخرى بالثغر[١] كما شرع السلطان صلاح الدين في بناء مدرسة على ضريح المعظم توران شاه أثناء عمارته لخليج الإسكندرية[٢].

**٦- دار المغاربة :**

لما كانت الدولة الفاطمية نشأت أولاً في المغرب قبل انتقالها إلى مصر، فقد اصطحبت معها أعدادًا كبيرة من المغاربة واستخدمت أبناء هذه الجالية في المناصب الحكومية.ومن الطبيعي أن تكون تلك الجالية كبرى الجاليات الإسلامية في مصر والإسكندرية آنذاك،فكان من سياسة صلاح الدين كسب هذه الطائفة إلى جانبه بعد أن انتهى عصر الدولة الفاطمية، فأنشأ دارًا للمغاربة في الإسكندرية سنة **٥٥٧**هـ/ **١١٦١**م[٣]؛ لتحويل أنظارهم عن المذهب الشيعي الذي كانت عليه دولتهم الزائلة، وكانت تلك الدار شاملة لجميع المذاهب السنية، ويقصدها طلاب العلم والتعبد من الوافدين إلى الإسكندرية من الأقطار النائية، لاسيما بلاد المغرب، فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوى إليه، ومدرسًا يعلمه فرع من فروع العلوم الإسلامية الذي يريد تعلمه، وراتبًا منتظمًا يكفيه في جميع أحواله.واتسع اعتناء السلطان صلاح الدين بهؤلاء الغرباء الوافدين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون

=وقدم مصر شاباً صغيراً، ثم تفقه في الدين، وسمع من السلفي، وابن بري، وابن عوف، وكان يكتب بطريقة المغاربة والمشارقة، بقي في القضاء أزيد من أربعين سنة وتوفي في سنة **٦٤٥**هـ/**١٢٤٧**م، بعد أن ترك القضاء بسنة.(الذهبي(ت**٧٤٨**هـ) تهذيب سير أعلام النبلاء، ط**١**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، **١٩٩١**م، ج**٣**، ص**٢٩٣-٢٩٤**).

[١] الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج**٣**، ص**٨٦**، ابن العماد، شذرات الذهب، ج**٦**، ص**٤٥٤**.

[٢] المقريزي، السلوك، ج**١**، ص**١٨٧**، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص**٢٤٦**.

[٣] ذكر المقريزي في أحداث سنة **٥٧٧**هـ، أن السلطان صلاح الدين شرع في بناء مارستاناً ودارًا للمغاربة (السلوك، ج**١**، ص**١٨٧**).

فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مستشفى لعلاج المرضى منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحم من علاج وغذاء، ورتب رجالاً لزيارة المرضى الذين يترفعون عن العلاج بالمستشفى من الغرباء خاصة ويبعثون بما يرونه إلى الأطباء ليعالجوهم. [١]

والى جانب ذلك كانت الإسكندرية محط أنظار أهل المغرب، يتفاعلون مع حوادثها السياسية والحربية، وأدى هذا إلى علاقات بين الطرفين قوامها الود، نشطت خلالها الحركة العلمية بينهما ومما يذكر في هذا الصدد أن صلاح الدين لما عين طعامًا ورزقًا لأبناء السبيل المغاربة استوطن كثير منهم الإسكندرية للمرابطة وطلب العلم، حتى يذكر ابن جبير في رحلته أن السلطان صلاح الدين عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم.[٢]

### ٧- المدرسة الفاضلية:

بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني-كاتب السلطان صلاح الدين ووزيره- في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعة للإقراء: أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبي، ثم تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبي، ثم الشيخ علي بن موسى الدهان.ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامة الإسكندراني، كما وقف فيها جملة من الكتب في سائر العلوم يقال إنها كانت مائة ألف مجلد [٣]

وبهذا عرفت الإسكندرية نظام التخصص في فروع العلم، كما في مرحلة التعليم العالي علاوة على مسكن للغرباء(المدينة الجامعية)والاهتمام بالمغتربين من طلاب العلم على نحو متكامل، بتوفير المأوى علاوة على الخدمات العلمية والصحية والاقتصادية والضمان الاجتماعي؛ ليتاح لهم التفرغ للعلم.

---

[١] ابن جبير، الرحلة، ص١٥.

[٢] ابن جبير، المصدر السابق، ص١٥، جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية، ص٦٩.

[٣] المقريزي، الخطط، ج٤، ص٤٦٢-٤٦٣.

## الخاتمة

بعد هذه الدراسة المفصلة لفقهاء الإسكندرية والنازلين بها وعلاقتهم بالسلطة نخلص إلى عدد من النتائج نجملها فيما يلي:

- جاء الفتح الإسلامي فأقصى الإسكندرية عن مركز الصدارة،وجعلها تبعًا بعد أن كانت متبوعة،لكنها في المقابل أصبحت دار رباط،وثغرًا من ثغور المسلمين، فقصدها طلاب الأجر والمثوبة، وكثر بها العباد والزهاد،وتبوأت مكانتها المرموقة في الحياة الفكرية والثقافية.

- لم تكن الإسكندرية بمعزل عن التيارات الفكرية المختلفة في العالم الإسلامي، بل كانت نقطة احتكاك وملتقى هذه التيارات كلها،وقد ساعد على ذلك موقعها الجغرافي المتوسط بين البلدان،وطبيعتها التجارية،وأنها كانت معبرًا للرحلة من المغرب إلى المشرق،وملتقى للحجاج الأندلسيين والمغاربة الذين كانوا يستريحون فيها من وعثاء السفر أيامًا في أثناء توجههم إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج، وكذلك في أثناء عودتهم منه إلى بلادهم،فكانوا ينتهزون فرصة استراحتهم تلك فيلتقي علماؤهم وأدباؤهم بعلمائها وأدبائها، فيسمعونهم ويسمعون منهم ،ويتبادلون معهم المعرفة والثقافة.

- كانت الإسكندرية في مطلع القرن ٦هـ/١٢م ملتقى كثير من علماء الشام الذين كانت بلادهم مسرحًا للحروب الصليبية مما اضطر أولئك العلماء إلى هجرتها والنزوح إلى الإسكندرية، كما نزح عدد كبير من علماء صقلية المسلمين إلى الإسكندرية بعد أن احتل النورمان جزيرتهم في النصف الثاني من القرن ٥هـ/١١م ، ونزح عدد آخر إليها من علماء الأندلس نتيجة سقوط بعض الحواضر الأندلسية في أيدي النصارى الإسبان مما دفع كثيرًا من العلماء إلى الهجرة طلبًا للأمن، كما فعل الفقيه أبو بكر الطرطوشي وغيره.

- كانت علاقة الفقهاء والعلماء السكندريين بالسلطة أواخر القرن ٥هـ/١١م علاقة صدامية مثلما حدث في عهد بدر الجمالي ومن بعده ابنه الأفضل .

- كان مطلع القرن ٦هـ/١٢م بداية لعصر جديد للحياة العلمية والدينية في مصر في كنف الوزير الأفضل؛إذ أحدث تغيرات في سياسة الدولة الداخلية، فاتسم عهده بالعدل والتسامح الديني وبرع الفاطميون في استخدام سلاح العلم والأدب والثقافة خلال صراعهم مع الخلافة العباسية ؛إذ إن مذهبهم الشيعي الذي يخالف مذهب جمهور السنة كان في حاجة إلى الدعوة وكسب المؤيدين في أنحاء العالم الإسلامي وكان على الفاطميين إلى جانب الغزو السياسي والحربي القيام بغزو فكري ومحاولة جذب العلماء والأدباء والمفكرين.

- كان يحدث تقارب وتوافق أحياناً بين أهل الإسكندرية وبين السلطة الحاكمة،كلما خفَّت حدة التشيع،أو كلما برز في ساحة الحكم وزيرًا سنيًا.

- حرص وزراء الدولة الفاطمية على كسب ود العلماء، بالتقرب منهم وزيارتهم، وتلبية حوائجهم، كما كانت مطالب العلماء وشفاعاتهم مستجابة. وقد بدا واضحًا أن سياسة إكرام العلماء كانت نهجًا تنتهجه الدولة الفاطمية على مستوى الخليفة والوزراء ، وبرز ذلك بما نالوه منهم من مكانة رفيعة وتقدير وعطاء.

- تمتع الفقهاء في المجتمع الإسلامي بمكانة مرموقة في نفوس أهل الثغر، فكانوا يلتفون حولهم ويكبرونهم، مما أدى إلى ازدياد واصبحوا يمثلون الزعامة الحقيقية للمدينة، وكانت كلمتهم مسموعة لدى الحكام.

- على الرغم من العلاقة الطيبة التي جمعت وزراء الدولة الفاطمية بمصر وعلماء الإسكندرية في كثير من الأحيان،فإنها لم تخلُ الأمور من بعض التوترات والصدامات التي أفضت للمساءلة أحيانًا،ولسوء المعاملة أحيانًا أخرى،حتى وصل الأمر لدرجة الاعتداء عليهم، وبغضهم ونبذهم، وذلك نتيجة ارتكابهم بعض الأخطاء.

- بذل فقهاء الإسكندرية جهدًا كبيرًا لنشر الدين الإسلامي بالإسكندرية وخدمة السنة وهزيمة البدعة مما جعل الدعوة الشيعية يتقلص ظلها بسرعة وينحسر

نفوذها في الإسكندرية كما وقف فقهاء الإسكندرية أمام المتكلمين الأندلسيين لما كانت عليه الإسكندرية من اتباع للسنة وكراهية لأصحاب الكلام .

- كثيرًا ما احتاج المسئولون والقائمون على السُّلطة في الدولة الفاطمية بمصر إلى خبرات العلماء والفقهاء، وربما إلى مؤازرتهم في كثير من القضايا التي تصب في مصلحة الدولة.

- لم تقتصر إسهامات علماء الإسكندرية وفقهائها على مشاركة السلطة في الأحداث ومواقفها الداخلية والخارجية،بل تعدتها للمشاركة في الوظائف العامة للدولة باستثناء بعض الفقهاء الذبن امتنعوا ورفضوا تحمل مسئولية السلطة والتوظيف.

- عرفت الإسكندرية ما يشبه التعليم العالي متمثلاً في التخصص في فروع العلم علاوة على الاهتمام بالمغتربين وتوفير المأوى لهم وبذلك تهيأت لهم الخدمات العلمية والصحية والاقتصادية والضمان الاجتماعي والتفرغ للعلم.

- الواقع أن الفاطميين في دأبهم على إنشاء المدارس في مصر لم يكونوا مبتكرين، وإنما كانوا محاكين لما شاهدوه وسمعوا به في الدولة العباسية،خاصة بعد أن أسس نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م،وافتتحها سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م.

## الخرائط

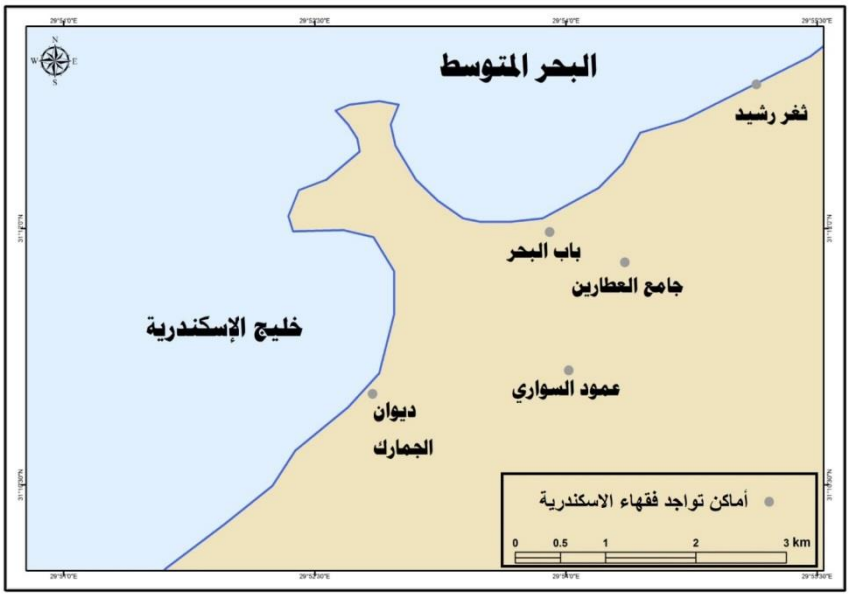


**خريطة عن أماكن تواجد فقهاء الإسكندرية**

**( من عمل الباحث اعتمادًا على ما ورد في بعض المصادر)**